تيلاندسيا

رواية

تيلاندسيا

رواية

تأليف :

سلمى الغزاوي

تحرير أدبي :

سندس جمال الحسيني

مراجعة لغوية:

محمد حمدي

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

رقم الإيداع: 2016/19994

الترقيم الدولي: 978-977-820-000-3

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

تيلاندسيا

سلمى الغزاوي

رواية

إهداء...

إلى جورج.. الذي أرداه حلمه

إلى زمـلائي في الدراسـة الجامعيـة، أبنـاء دولـة مـالي العريقـة: راقيـة، يحـيى، الطاهـر.. الذيـن عرفـوني عـلى سـحر القـارة السـمراء.

إلى شام الياسمين، الصامدة دوما وأبدا.

إلى جبال الريف الشامخة على مر العصور.

وإلى كل من يحمل حلما على كتفيه.

وسحابُ الخير لهُ مطر.. فإذا جاءَ الإبّانُ تَجي

(ابن النحوي)

في طريق الحلم

-١-

تمايل المركب على صفحة المياه اللازوردية كراقصة خجلى تخطو أولى خطواتها في عوالم الليل، أحسست بالبرد القارس يتسلل إلى عظامي، انكمشت في مكاني وأنا أتأمل انعكاس ضوء الفجر على الأمواج الصغيرة، ترنَّح المركب مرة أخرى، كدت أسقط، أمسكتني إحدى المرشحات للهجرة، كانت حبلى في شهرها الأخير، وعلى ما يبدو كانت تأمل أن يتواطأ الطلق معها ويفاجئها ما أن تصل إلى الضفة الأخرى لعلها تضمن البقاء هناك رفقة مولودها، الذي سيتحول إلى جوازها، لذلك يلزمه أن يكون محظوظا بما يكفي ليخرج إلى الوجود في الزمان والمكان المناسبين، اهتز المركب المثقل بعشرات المرشحين للهجرة السرية القادمين من دول جنوب الصحراء، تذكرت قصيدة «المركب الثمل» وابتسمت، هزت المرأة الحبلى كتفي وقالت بحماس:

- انظر، يبدو أننا حققنا حلمنا أخيرا.. الفردوس المفقود يلوح في الأفق!

خفق قلبي بسرعة جنونية، لم أصدق ما رأيته، كانت هناك جزيرة متلألئة ممتدة على مرمى البصر، نظرنا مدهوشين إلى بعضنا البعض، انتابتنا مشاعر متضاربة، اقتربنا أكثر من الجزيرة اللامعة، فجأة، هبت عاصفة قوية، حاول القبطان تفادي غرقنا لكن كل محاولاته ذهبت سُدى، كانت الرياح والأمواج المتلاطمة أقوى بكثير من مركبنا الهش الذي انقلب بسرعة، لنجد أنفسنا نصارع الموت في عرض الساحل، حاولت أن أنقذ المرأة الحبلى، مددت إليها يدي لكنها أفلَتَتْها، وقالت ووجهها تعلوه شبه ابتسامة ساخرة:

- حتى في الأحلام يحدث أن يلاحقك الموت، قدرك...

ثم اختفت في أعماق البحر.

حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أسبح إلى الضفة الأخرى، إلا أن الجزيرة كانت تبتعد أكثر فأكثر كلما خلت أنني أوشك على بلوغها، إلى أن تلاشت كالسراب، لأجد نفسي ملقى على يابسة قاحلة بعدما لفظني البحر الذي ابتلع حلمي.

ظللت ممددا على ظهري كالحي الميت، بعد ذلك تناهى إلى مسامعي صوت أحدهم وهو يقول لي بلهجة غاضبة:

- انهض يا صديقي، إن هذا المقام الشريف ليس مخصصا للنوم!

فتحت عيني، كان يقف أمامي رجل يرتدي جلبابا بنيا، اكتشفت أنني غفوت وأنا أسند ظهري إلى سارية رخامية بضريح «المولى إدريس»، فكرت في أن البعض يحرصون دوما على إيقاظك من أحلامك، كأنما خُلقوا فقط لقص أجنحة الحلم.

وقفت على قدمي الملتهبتين بعناء وانتعلت حذائي، لأواصل رحلة تيهي في أزقة المدينة العتيقة لفاس، قبل أن أغادر الضريح، طلبت من «المولى إدريس» أن يساعدني على تحقيق حلمي في العبور حيا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، كان قد مر شهر على وصولي إلى العاصمة العلمية المغربية «فاس»، «فاس» التي لطالما أيقظت بداخلي ذاك الحنين الحارق إلى مسقط رأسي في مالي «تمبكتو»، ملتقى الأساطير، مهد الحكايات الجميلة، جوهرة الصحراء التي غادرتها رغما عني، لأحقق حلمي بمستقبل أفضل، ذلك الحلم الذي انبثق من واقع مرير.

شربت من عين ماء صغيرة توجد قرب الضريح، كانت قدماي النازفتان بسبب رحلتي الطويلة تؤلمانني كثيرا، كان عليّ أن أعثر على مكان ليس ببعيد لأمضي ليلتي، إذ لم أكن قادرا على الالتحاق بأصدقائي المهاجرين في الحديقة التي كنا نبيت بها لأنها بدت لي بعيدة.. كحلمي.

***

-٢-

واصلت رحلة ضياعي، كنت أسير كالمنوم، لم أتوقف إلا بعد أن اشتدت وطأة الآلام المنبعثة من قدمي المنتفختين، جلست على عتبة باب متجر مغلق لألتقط أنفاسي الواهنة ولأتفحص قدميَّ، خلعت حذائي الرياضي المثقوب واكتشفت أن الدم تسرب من الضمادات ليلطخ جوربي، ارتديت الحذاء مجددا بصعوبة ووقفت بعدما استندت إلى جدار، أكملت سيري وأنا أشعر بأنني أتماهى مع كلب شريد قُطعت إحدى قوائمه، أخيرا وصلت إلى ساحة «أبي الجنود»، تسللت روائح الأكلات المغربية الشهية التي تقدمها المطاعم الشعبية وبعض العربات إلى مسام أنفي وأشعلت بداخلي إحساسا لا ينقطع بالجوع، دسست يدي في جيبي لأعرف كم تبقى لي من نقود، لم أعثر إلا على درهم واحد، تذكرت أنني ألقيت كل ما كان في حوزتي من دراهم في صندوق «المولى إدريس»، ذاك الصندوق الموجود بمعظم الأضرحة والذي كثيرا ما أسميتُه: صندوق الأمنيات. شعرت بالبرد ينخر عظامي، لعنت غبائي الذي جعلني أترك حقيبتي المحتوية على الملابس القليلة التي جلبتها معي في عهدة صديقي ورفيق رحلتي «عبدول».

أحسست ببوادر الإغماء، لم أتمكن من الاستمرار في مقاومة الجوع والبرد، لم يتبق أمامي سوى أن أطلب من أحد أصحاب عربات الطعام إعطائي قليلا مما يبيعه لأستطيع استئناف سيري، اقتربت من أحدهم، كان يبيع شوربة الحلزون بالأعشاب، وقفت أمامه وأنا أرتجف، نظر إليّ قليلا وسألني:

- ألديك نقود؟

هززت رأسي نافيا، نزع غطاء الطنجرة وأخذ وعاء صب لي فيه مرقا ساخنا، أمسكته وشربته دفعة واحدة، دبَّ الدفء في أوصالي من

جديـد، أعطيتـه الوعـاء وشـكرته بحـرارة، قبـل أن أنـصرف، سـألني مجـددا:

- لاحظت أنك تجيد العربية، من أي بلاد قدمت؟

أجبته:

- أنـا أمازيغـي لكنـني درسـت اللغـة العربيـة وعلـوم الديـن، أتيـت مـن «مـالي» طالبـا للهجـرة.

ابتسم قائلا:

- حفظك الله يا بُنَيَّ.

ودعتـه، كنـت لـم أسـمع كلمـة «بـني» منـذ زمـن، مـذ قُتـل أبي خطـأ في إحـدى التفجـيرات الانتحاريـة بتُمبكتـو، تحسسـت القـلادة الـتي تحمـل الحـرف الأول مـن اسـمي «مامـادو» بخـط التيفينـاغ، كانـت تلـك القـلادة هـي كل مـا تبقـى لي مـن أبي.

سرت عـلى غـير هـدى، تقاذفتـني متاهـة المدينـة العتيقـة، اختلـط الـتراب بـدم جرحـي النـازف، لـم أُبـال، اعتـدت الألـم، مـررت بمحـاذاة مقـبرة، لوهلـة، فكـرت في أن أقـضي ليلـتي فيهـا، لكنـني سرعـان مـا طـردت هـذه الفكـرة مـن رأسي المنهـك، لأن وحشـة وسـكون المقابـر لا يـزالان قادريـن عـلى بـث الرعـب في نفـسي منـذ الصغـر.

سرت طويـلا فـوق جراحـي الـتي صـارت جـزءا لا يتجـزأ مـني، توقفـت أمـام المحطـة الطرقيـة لفـاس، قـررت أن أمـضي ليلـتي بهـا، افترشـت الـتراب، التحفـت النجـوم وتوسـدت حقيبـة حلمـي، في انتظـار إشراقـة صبـح جديـد.

أنا المنتظر.. التائه في دروب الحلم.

***

-٣-

أفقت في الصباح الباكر بعد أن هُيئ لي أني سمعت صوت أبي وهو يقول:

- قم يا بني لتكسب قُوتك.

نهضت من مكاني، كانت عظامي تؤلمني كثيرا، نفضت ملابسي من التراب العالق بها ووقفت أتلفت يمينا ويسارا، كنت متعبا وحائرا، لم أعرف ما عليّ فعله لأكسب قوتي بعرق جبيني، النقود التي جلبتها معي صرفت معظمها في الطريق إلى فاس، والباقي كان بالكاد يكفيني لأبتاع الطعام، ثروتي الصغيرة المتبقية التي خبأتها بحرص في حقيبتي لا تتجاوز مئة درهم على أقصى تقدير. فجأة، ترجلت سيدة خمسينية ممتلئة من إحدى سيارات الأجرة، كانت تمسك حقيبة سوداء بعناء واضح، نظرت نحوي قبل أن تشير إليّ، تقدمت نحوها وألقيت السلام، طلبت مني أن أساعدها في حمل الحقيبة ريثما تعثر على سيارة أجرة تقلها إلى خارج المدينة، حملت الحقيبة وبقيت واقفا إلى جانبها حتى وجدت ضالتها، وضعتُ حقيبتها داخل صندوق السيارة وقبل أن أنصرف مدت لي يدها وبها عشرة دراهم، ابتسمت لها شاكرا، وعدت إلى مكاني في انتظار مسافرين محتملين، في ذلك الصباح ساعدت أربعة مسافرين على حمل حقائبهم حتى الحافلات وسيارات الأجرة، وتمكنت من كسب مبلغ يكفيني لتناول وجبة الغداء، نظرت إلى ساعتي اليدوية البلاستيك، كانت عقاربها تشير إلى الثانية عشرة، لم أبارح باب المحطة إلى أن أتى رجل أربعيني ضخم، أمسك بتلابيبي وسألني والشر يتطاير من عينيه المحتقنتين:

- من أتى بك إلى هنا أيها الزنجي الغريب؟

نظرت إليه بتحد وأجبته:

- جئت لأطلب رزقي، الرزق من عند الله..

رد علي:

- هذا المكان يخصني أنا أيها «الإفريقي»، ولن أسمح لك باحتلاله، أما إذا كنت مُصرا فسأوسعك ضربا!

كان بوسعي أن أكسر عظامه، إلا أنني تذكرت وصية أمي لي بعدم إثارة المشكلات حتى أعبر بسلام إلى الضفة الأخرى، دفعته، بصقت قرب حذائه ثم غادرت.

كان الغضب المشتعل في جوفي هو محركي، لم أعرف كيف وصلت إلى ساحة «أبي الجنود»، تخطيت هذا الباب التاريخي وولجت أول مطعم مررت قربه، اخترت طاولة وارتميت فوق الكرسي، كان المكان غاصا بالسائحات والسياح القادمين من أوروبا، أوروبا قبلة أحلامي، إحداهن كانت تجلس وحيدة، كانت امرأة صهباء سمينة، قدرت أنها في أواخر الخمسينات، ظلت توجه إليّ نظرات شهوانية كما لو كنتُ قنبلة جنسية آيلة للانفجار في أية لحظة، عرَّتني نظراتها، كانت تنظر إلى بنفس الطريقة التي تأكل بها، بشراهة منقطعة النظير.

قدم النادل، طلبت منه أن يجلب لي طاجين دجاج بالبطاطس المقلية، جلبه لي بعد لحظات مع خبز ساخن وقنينة ماء، تلذذت بالطاجين وتحاشيت نظرات المرأة الأجنبية التي تعاني من الوحدة، تذكرت طبق الدجاج المشوي بالأعشاب المرفق بالبطاطس الذي كان من بين أطباقي المفضلة في «مالي»، أنهيت وجبتي بسرعة، شربت الماء، غسلت يدي وحاسبت النادل، وغادرت المطعم وأنا أشعر بنظرات الأجنبية لا تزال تخترقني.

في طريق عودتي إلى الحديقة التي كانت تحتضننا ريثما نعثر على سكن مؤقت، شدت انتباهي إحدى فرق كْناوة وهي تؤدي عرضا موسيقيا، كان أعضاؤها يرتدون جلابيب حمراء فضفاضة وطاقيات مزركشة، ظلوا يعزفون على آلاتهم السحرية وهم يتمايلون، بينما كان رئيسهم أو «المْعلّم» كما يطلقون عليه يشدو:

«لا إله إلا الله..

المصطفى رسول الله..

داوي حالي يا الله»

استمتعت بعرض هؤلاء الدراويش الذين ينحدرون من إفريقيا السوداء مثلي تماما، وبالضبط من «غينيا» كما يشاع، ووددت لو استطعت أن أضع دراهم ولو قليلة في دفّ أحدهم، وأنا أهم بالانصراف، تفتّق ذهني عن فكرة عبقرية، وهي أن أقترح على رفيقي عبدول تقديم عروض في حلقة شعبية بالساحة، لنروي حكايات وأساطير بلدنا، لعلنا نجني المال كي ننجو من الموت جوعا.

***

-٤-

مـا أن اقتربـت مـن الحديقـة حـتى اندفـع نحـوي عبـدول وهـو يجـر رجلـه المصابـة بالعـرج منـذ الطفولـة بصعوبـة، عانقـني بحـرارة قبـل أن يسـألني باللهجـة البَمْباريـة، وهـي اللهجـة السائدة في «مـالي» الـتي تمكننـا مـن التفاهـم فيمـا بيننـا مهمـا اختلفـت أصولنـا، قائـلا:

- أيـن اختفيـت يـا أخـي؟ ظننتهـم ألقـوا القبـض عليـك ليقومـوا بترحيلـك.

ابتسـمت قبـل أن أحـكي لـه باختصـار عـن رحلـة تيهـي في الأزقـة العتيقـة، ومـا أن أنهيـت حكايـتي حـتى قـال:

- أقسـم إنـك ممسـوس أو مجنـون، وإلا مـا كنـت لتـترك قدميـك المتعفنتـين تقودانـك في كل تلـك الطرقـات المجهولـة.

قلت ضاحكا:

- قـد أكـون مجنونـا لكنـني لا أفوقـك جنونـا أيهـا البمبـاري الأحمـق، مـاذا فعلـت في غيـابي؟ هـل عـدت إلى عادتـك القبيحـة؟

هز كتفيه بلامبالاة وقال:

- ومـا عسـاني فاعـل؟ أنـا عابـر سـبيل والله أوصى في كتابـه الكريـم بالتصـدق عـلى أمثـالي.

أجبته بغضب:

- أكـره التسـول يـا عبـدول، التسـول للضعفـاء، هنـاك مئـة طريقـة لتكسـب رزقـك بعـرق جبينـك..

سألني بسخرية:

- إذن لمَ لا تجربها أنت؟

قلت ضجرا:

- أنت أكثر شخص كسول عرفته في حياتي، ترى كيف ستكسب قوتك إذا ابتسم الحظ في وجهك أخيرا وتمكنت من العبور إلى «الإلدورادو»؟

أجاب بسخريته المعهودة:

- قد أعثر على عجوز إسبانية تُغرم بجمالي وسحر مشيتي، وتقرر أن تتزوجني وترعاني..

ضحكنا طويلا، قبل أن أقترح عليه القيام بعروض في حلقة شعبية ابتداء من اليوم التالي، فكر قليلا وقال بتردد:

- لكنني لا أجيد التحدث بالعربية مثلك يا أخي، ولا أعرف إلا بضع كلمات من اللهجة المغربية، ولهذا لن أتمكن من التواصل جيدا مع الناس، ثم إنني لا أتذكر كل الخرافات والحكايات الشعبية المالية.

طمأنته قائلا:

- سأتكفل أنا بسرد الحكايات بينما ستكون مهمتك أنت هي فقط جمع المال من المتفرجين، اتفقنا؟

لمعت عيناه الجاحظتان وهز رأسه موافقا، فتحت حقيبتي وأخذت منها ما تبقى لي من مال، أغلقتها مجددا ثم حملتها على كتفي، وقلت له:

- هيا يا أخي، يجب أن نقصد حماما شعبيا لننظف أنفسنا جيدا كي يصير مظهرنا لائقا.

حمل حقيبته الصغيرة وتبعني وهو يسير كما لو كان يقفز، لاحظت أن عرجه ازداد وضوحا بسبب سيرنا الطويل منذ بداية رحلتنا، سرنا صامتين إلى أن توقفنا أمام حمام للرجال، دفعت الثمن المطلوب ودخلنا إلى القاعة الكبيرة المكتظة، كان البخار يملأ المكان إلى حد تصير معه الرؤية صعبة، جلبت سطلين كبيرين من الماء وبدأنا في تنظيف جسدينا، فجأة، انتصب أمامنا رجل أبيض ضخم، كان يستر عورته بمئزر، سألنا:

- ألا تريدان أن أفرك ظهريكما؟

نظـرت إليـه باسـتغراب، شـكرته واعتـذرت منـه قائـلا إننـا نعتمـد عـلى أنفسـنا ولا نـترك أحـدا يسـاعدنا في تنظيـف أجسـادنا، لـم يأبـه لكلامـي، جلـس قـربي وأخـذ كيـس اسـتحمامي وقبـل أن يـشرع في إزالـة الخلايـا الميتـة قـال:

- هذه مهمتي، أنا أعمل «كَسَّالا» في هذا المكان.

استسـلمت ليديـه الخشـنتين وأنـا مندهـش جـدا، للمـرة الأولى يفـرك أحدهـم ظهـري، في «مـالي» اعتدنـا الاعتمـاد عـلى أنفسـنا منـذ الصغـر، واعتدنـا كذلـك اسـتخدام كيـس اسـتحمام طويـل مـن أجـل القيـام بعمليـة تقشـير الجلـد بأنفسـنا، قـال لي عبـدول وهـو يحـاول أن يكتـم ضحكتـه:

- أتذكـر مَثَلنـا السـاحر: «إذا نظـف أحدهـم ظهـرك، إذن يجـب أن ينظـف بطنـك كذلـك»، يـا للعـار! سيسـخرون منـا كثـيرا في بلدنـا إذا علمـوا، أتخيـل نظـرة أمـك.

تجاهلتـه إلى أن انتهـى الرجـل الضخـم مـن تنظيفـي، وتوجـه نحـوه ليفـرك ظهـره، قلـت لـه:

- الآن سيسخرون منا نحن الاثنين يا أخي الأحمق.

سألني «الكَسَّال»* وهو منهمك في فرك ظهر «عبدول»:

- من أي بلاد تنحدران؟

أجبته:

- من «مالي».

سألني مجددا:

- أنتما مسلمان؟

---

*كَسّـال: مُدَلّـك يعمـل بالحمـام المغـربي ويسـاعد الرجـال في تنظيـف أجسـادهم نظـير بقشـيش.

- أجـل، أنـا اسـمي «مامـادو» أمازيغـي مسـلم، وهـذا صديقـي «عبـدول» وهـو بمبـاري مسـلم.

صاح الرجل:

- سبحان الله! هناك أمازيغ في بلاد السود!

هـززت رأسي مؤكـدا، ومـا أن أنهـى مهمتـه وانـصرف، حـتى انفجرنـا ضحـكا أنـا و«عبـدول».

لطالما تساءلت: لماذا ينظر بعض الناس إلى الأفارقة السود كما لو كانوا مجرد نباتات وحشية بلا جذور، تماما كنبتة التيلاندسيا.

***

-٥-

غادرنـا الحمـام الشـعبي يغمرنـا انتعـاش كبـير، في الطريـق، توقفنـا في مطعـم يقـدم الحريـرة المغربيـة، ثـم عدنـا إلى الحديقـة، تلـك الـتي تُعد ملجأنـا، كان الجـو بـاردا للغايـة، وجدنـا رفيقينـا «إسـماعيل» و«حمّـاد» نائمـين، أديـت أنـا وعبـدول صـلاتي المغـرب والعشـاء، ثـم جلسـنا لنتحـدث قليـلا بانتظـار أن يداعـب النـوم أجفاننـا، تحدثنـا في مواضيـع شـتى، قبـل أن يقـول عبـدول:

- سـعيد لأننـا أفلتنـا مـن التجنيـد الإجبـاري مـن طـرف الجماعـات المسـلحة، وكنـا محظوظـين ولـم نمـت في الصحـراء في أثنـاء عبورنـا إلى هنـا، أتمـنى أن نكـون محظوظـين بمـا يكفـي لنجمـع المـال ونعـبر إلى «الإلـدورادو».

أجبته مازحا:

- قلـت لـك مـن قبـل إن الجماعـات المسـلحة الـتي تعيـث فسـادا في بلدنـا يسـتحيل أن تقـوم بتجنيـد شـخص معطـوب مثلـك.

أجاب:

- أتـدري؟ الجماعـات المسـلحة لا يهمهـا عرجـي، كل مـا يهمهـا هـو أن أجيـد تصويـب أسـلحتهم نحـو أهدافهـم، أو أضغـط عـلى زر تفجـير أحـد أحزمتهـم الناسـفة في الوقـت والمـكان المحدديـن، لأن مـا يبحثـون عنـه فعـلا هـو شـباب مسـتعد لتدمـير بلـده وطمـس معالمهـا التاريخيـة.

سـاد بيننـا الصمـت، تمددنـا وشرعنـا نتأمـل السـماء المُزدانـة بالنجـوم، إلى أن قـال عبـدول وهـو يشـير بسـبابته نحـو السـماء:

- انظـر يـا مامـادو إلى تلـك النجمـة الكبـيرة اللامعـة، إنهـا نجمـتي! لقـد تبعتـني مـن «تمبكتـو» لتنـير طريقـي، إنهـا ترافقـني منـذ صغـري.

انتابتـني نوبـة هسـتيرية مـن الضحـك، كنـت أحـب هـذا الأحمـق كثـيرا

وأعتبره أخي الذي لم تلده أمي، وكنت أشفق عليه أيضا، لأن فوبيا اختطافه من قبل الجماعات الإرهابية وتجنيده في حرب أهلية مجنونة قد أثرت على قواه العقلية، وظلت تقض مضجعه حتى بعد لجوئه إلى المغرب.

في تلك الليلة، لم أنم ولو لوهلة قصيرة، ظللت أسترجع ذكريات رحلة هجرتنا القسرية من بلداننا، في البدء، كان يبلغ عددنا نحو ثلاثين حالما وحالمة، كان أغلبنا ينحدر من «مالي» و«السنغال»، توغلنا في تُخوم الصحراء لنعبر الحدود عن طريق البر بعد أن قامت شبكة التهجير السري بجمعنا في العاصمة «باماكو»، حيث دفع كل شخص منا خمسمئة دولار للوسطاء، وهو بالنسبة لإمكانياتنا المادية مبلغ كبير جدا لم يكن بوسع معظمنا تدبيره، بما أن الدخل الفردي اليومي في بلدنا لا يتجاوز دولارين في أفضل الظروف. في حالتي، كان حلمي سيقبع في ظلال المستحيل لو لم تساعدني والدتي بمنحي جميع مدخراتها، على أمل أن أنجح في الوصول إلى «أوروبا» لأنتشل نفسي وشقيقاتي الثلاث من الفقر الذي ينهشنا..

كان الطريق شاقا، استمر سيرنا لأيام وليال طوال في ظروف لاإنسانية، كان الطقس جد حار وجاف ولم نكن نجد ما نسد به رمقنا غير القليل من التمر والماء، في تلك الصحراء، أصيب ثلاثة رفاق بحمى شديدة ولفظوا أنفاسهم في طريق الحلم الذي اكتشفنا أنه طويل.. أكثر مما ينبغي.

وارى مرشدونا جثامين أصدقائنا الثرى في مكان قصي من الصحراء الشاسعة، كدت أنهار وأنا أشهد اغتيال الصحراء القاسية المتوحشة لأحلام هؤلاء الأصدقاء، لكنني تشبثت بحلمي كما يتشبث المقامر الذي اعتاد الخسارة بآخر أوراقه، وتابعت السير رغم نزف قدميّ ونزف روحي، لأنني لم أرد أن أُدفن في الصحراء كجثة مجهولة الهوية، وكذلك لأنني لم أرغب في أن أخذل أمي وأخلف وعدي لها بأن أعود إليها بعد أن أحقق حلمي وأنا حي أتنفس.

واصلنـا السـير إلى أن بـدأ مرشـدونا الأربعـة يحثوننـا عـلى تسريـع وتـيرة سـيرنا، وأخـيرا وصلنـا إلى مدينـة «تمنراسـت» الجزائريـة، هنـاك سـلمونا إلى وسـطاء قسـاة مـن الطـوارق، سـاقونا كبهائـم شريـدة إلى شـاحنة كبـيرة، كنـا في حالـة يـرثى لهـا، وكأننـا دخلنـا في غيبوبـة اصطناعيـة، لـم نعـرف كيـف عبرنـا الحـدود الجزائريـة – المغربيـة، لنجـد أنفسـنا عالقـين في إحـدى الغابـات القريبـة مـن مدينـة «وجـدة»، ونكتشـف أن الشـبكة قـد قامـت بخداعنـا، وخرقـت اتفاقهـا معنـا بإيصالنـا إلى إحـدى الغابـات المُتاخمـة لمدينـة «سـبتة»، الثغـرة الـتي قـد تمكننـا مـن تحقيـق حلمنـا، لكـن الأوان كان قـد فـات، لـذا أمضينـا بضعـة أسـابيع مـن الضيـاع هنـاك قبـل أن نفـترق بعدمـا اختـار كل واحـد منـا الوجهـة الـتي سـتمكنه مـن جمـع المـال ليجتـاز النصـف المتبقـي مـن رحلتـه نحـو جزيـرة الأحـلام.

***

-٦-

مساء اليوم الموالي، قصدنا ساحة «أبي الجنود»، وما أن وقفنا حتى صحت كمجنون:

- صديقاتي، أصدقائي العابرين، هل سبق أن سمعتم مَثلنا المالي الذي يقول: «الذهب يُجلب من الجنوب، المال يأتي من بلاد البيض، لكن الروحانيات والحكايات الجميلة لا يمكن العثور عليها إلا في تمبكتو»، لهذا إذا كنتم من محبي القصص المشوقة اقتربوا لتستمتعوا بحكايات وأساطير لم تسمعوها من قبل.

اقترب مني بضعة أشخاص، أغمضت عيني وبدأت بسرد أسطورتي:

«يُحكى أنه في زمن بعيد جدا.. كان هناك رجل يدعى مالي، توفيت خطيبته الجميلة غرقا في نهر السنغال، كان مالي يعشق خطيبته حد الجنون، لذا كبله حزن الفقد على ضفة النهر، وذات يوم، ظل يحاول رؤية انعكاس روحها على صفحة النهر، لكنه لم يرها، فأصيب بخيبة شديدة جعلته يذرف دموعا غزيرة، فجأة، سقطت دموعه على صخرة سحرية، واستحال إلى فرس نهر...

بعدها، لمح فتاة ساحرة تستحم في مياه نهر السنغال العظيم، خالجته أحاسيس مبهمة لدى رؤيتها، ظل يراقبها خلسة، إلى أن قرر الاقتراب منها، وعكس ما تصوره، لم تخف منه، حاول أن يتحدث معها، لكنه اكتشف أنها خرساء، إلا أن ذلك لم يمنعهما من التواصل بلغة القلب، وكما تعلمون لغة القلب هي اللغة الوحيدة المشتركة بين جميع المخلوقات على وجه البسيطة مهما كانت أشكالها مختلفة...

حمل مالي الفتاة على ظهره ليعبر بها النهر، وبغتة، مر مركب صيد بمحاذاتهما، صاح صياد شرير وهو يشير إلى مالي:

- يـا للعجـب! أنـه فـرس نهـر كبـير يحمـل فـوق ظهـره فتـاة جذابـة، فلنقتلـه ونأخـذ الفتـاة لنسـتمتع بهـا...

مـا أن سـمعه مـالي حـتى قطـع النهـر بسرعـة خياليـة، تـرك الفتـاة الخرسـاء فـوق اليابسـة، ثـم غـاص في النهـر مـن جديـد ليهاجـم مركـب الصياديـن بشراسـة، خـرق المركـب ليبتلـع النهـر ذو التيـار الجـارف الصياديـن الأشرار في طرفـة عـين، لكنـه في أثنـاء الهجـوم أصيـب إصابـة بالغـة ونـزف كثـيرا، ورغـم إصابتـه المميتـة عـاد إلى اليابسـة ليطمـئن عـلى الفتـاة الجميلـة، تفاجـأ حـين ابتسـمت وقالـت لـه وهـو يحتـضر:

- أنـا طيـف خطيبتـك سـاديو يـا مـالي، كنـت أعلـم أن الميـاه الـتي فرقتنـا سـتجمعنا مـرة أخـرى إلى الأبـد...

وهكـذا، اختفـى مـالي رفقـة سـاديو في أعمـاق النهـر، ذاك النهـر العظيـم الـذي أصبـح اليـوم مـزارا للعشـاق الذيـن يأملـون أن يـدوم حبهـم ووفاؤهـم إلى الأبـد، كحـب مـالي وسـاديو».

صفـق جمهـوري الصغـير بحـرارة، ابتسـم لي عبـدول قبـل أن يـنزع قبعتـه ويـشرع في جمـع المـال مـن المتفرجـين الذيـن لاحظـت أن بعضهـم كان متأثـرا بالأسـطورة للغايـة، امتـلأت القبعـة عـن آخرهـا بالدراهـم، شـعرت مجـددا بالفـرح والأمـل وهمـا ينبعثـان مـن رمـاد حـزني ويـأسي، لكـن كمـا يقـال، هنـاك أنـاس هوايتهـم المفضلـة هـي إجهـاض فـرح الآخريـن، صحيـح أن حظـي العاثـر الـذي يرافقـني منـذ الطفولـة كثـيرا مـا جعلـني أصطـدم بالعديـد مـن قنـاصي الفـرح، إلا أنـني لا أنكـر أن إسـاءة ذلـك الرجـل الـذي يسـتغل سـلطته المحـدودة مـا زالـت محفـورة في ذاكـرتي، رغـم مـضي وقـت طويـل عليهـا.

فقـد كنـت منتشـيا وأنـا أحـاول أن أحـصي النقـود الـتي جنيتهـا مـن يومـي الأول في الحلقـة، عندمـا خـرج رجـل قصـير مـن العَـدَم، اقـترب منـا، أمسـكنا مـن تلابيبنـا وقـال:

- هـل تحسـبان أن الفـوضى تعـم بلدنـا كمـا هـي الحـال عندكـم أيهـا الهَمـج؟

أجبته بهدوء:

- لـم نفعـل شـيئا يـا أخـي، جئنـا لنكسـب رزقنـا وحسـب، ثـم مـن تكـون لتتدخـل في مـا لا يعنيـك؟

ضحك باستهزاء وأجاب:

- أنـا عـون سـلطة، ومـن بـين المهـام الموكولـة إلى منـع اجتيـاح الجـراد الأسـود لهـذه السـاحة، لهـذا لا أريـد أن أراكمـا هنـا مـرة أخـرى، وإلا سـأصدر أوامـري بإعادتكمـا إلى أدغـال قبائـل «شـاكازولو» الـتي قدمتمـا منهـا.

قبـل أن نجيبـه، انـتزع القبعـة مـن بـين يـدي «عبـدول» وصـادر المـال الـذي جنينـاه، ظللنـا مشـدوهين إلى أن قـال:

- أرأيتمـا أيهـا الزنجيـان، هـذا مـا يحـدث لمـن يُحصّـل المـال بطريقـة غـير قانونيـة، هيـا اغربـا عـن وجهـي!

تسـمرنا في مكانينـا إلى أن تبخـر في الزحـام، ومعـه تبخـر حلمنـا في كسـب قوتنـا عـن طريـق حـكي أسـاطيرنا وحكاياتنـا الشـعبية.

إلى اليـوم، لا أعلـم إذا كان هـذا الرجـل حقـا عـون سـلطة يسـتغل صلاحياتـه المحـدودة أم لا، مـا أعلمـه هـو أنـني تألمـت كثيرا بعد اكتشـافي أن أمثالـه لا يعتبروننـا بـشرا مـن لحـم ودم ولا يراعـون لنـا مشـاعر، بـل يعتبروننـا مجـرد حـشرات مـضرة يمكنهـم أن يسـحقوها أنى شـاؤوا تحـت أحذيتهـم بسـهولة مطلقـة، لأنـه لا يحـق لهـا أن تحظـى بفرصـة للعيـش، أو بالأحـرى، أن تحـاول العيـش بسـلام، ولـو لوقـت قصـير.

***

-٧-

عدنـا إلى الحديقـة نجـر خيبتنـا، كان صديقنـا السـنغالي «إسـماعيل» الـذي يعمـل ماسـح أحذيـة بانتظارنـا لنتقاسـم معـه وجبتـه البسـيطة المكونـة مـن الخـبز والجـبن، جلسـت بعدمـا خلعـت حـذائي المهـترئ الـذي تـآكل إلى حـد أن بـرز مـن خلالـه إصبعـي الدامـي، بعـد لحظـات التحـق بنـا «حمَّـاد» السـيراليوني، كان يحمـل بـين يديـه مـا تبقـى لـه مـن علـب السـجائر الـتي يبيعهـا بالتقسـيط، تحلقنـا حـول الطعـام، ثـم أدينـا الصلاة جماعـة، بمجـرد انتهائنـا مـن الصلاة، وقـف عبـدول أمامنـا وفاجـأني حـين بـدأ يقـص لصديقينـا عـن مغامرتنـا السـيئة بسـاحة «أبي الجنـود»، غـرق «إسـماعيل» و«حمـاد» في الضحـك، استغربت مـن ضحك «حمـاد» لأنـني عهدتـه شـخصا انطوائيـا، حزينـا، ومقـلا في الـكلام، اسـتمر عبـدول في السـخرية مـني، قبـل أن يـشرع في تقليـد طريقـة حديـثي وهـو يقـوم بحـركات مسرحيـة، أزعجتـني سـخريته، ويبـدو أنـه حينمـا لاحـظ انزعاجـي تمـادى أكـثر، وبـدأ يقـص أسـطورته:

«أصدقـائي الحالمـين، يقـال إن كل شـخص يحتـاج إلى أسـطورة يؤمـن بهـا ليسـتمر عـلى قيـد الأمـل، ولهـذا سـأحكي لكـم أسـطورتي الخاصـة:

في غابـر الزمـان، كانـت هنـاك فتـاة جميلـة جـدا اسـمها جوجـو، وذات يـوم، صادفـت أرنبـا مكتـنزا، فانقضـت عليـه وذبحتـه، بعدهـا، جلبـت قـدرا فضيـة وسـلقته فيـه لتحصـل عـلى الشـوربة، وكمـا تعرفـون، أكل الأرانـب ممنـوع في بلدنـا لأنـه يجلـب الحـظ السـيئ، ولهـذا مـا أن تناولتـه جوجـو حـتى تجسـدت لهـا سـاحرة شريـرة، ألقـت عليهـا تعويـذة مسـختها وجعلـت وجههـا يبـدو كوجـه أرنـب عجـوز، وقبـل أن تتـلاشى في الهـواء، قالـت لهـا وهـي تلـوح بعصاهـا السـحرية:

- لـن يبطـل عمـل هـذه التعويـذة وتعـودي إلى شـكلك الحقيقـي إلا إذا عـثرت عـلى رجـل يحبـك كمـا أنـت...

بعـد ذلـك، التقـت جوجـو بوحـش يدعـى غوليـم، وقـع في غرامهـا مـن النظـرة الأولى، لكـن مـا أن اقتربـت منـه لتُقبلـه لعلهـا تكسر اللعنـة حـتى هبـت زوبعـة قويـة وتجسـدت لهـا السـاحرة الشريـرة مـن جديـد، وقالـت بصـوت مجلجـل:

- ألم تجدي رجلا آخر غير زوجي؟

ثـم ألقـت عليهـا تعويـذة جديـدة حولتهـا إلى تمثـال أرنـب مشـدوه، لتكـون عـبرة لـكل النسـاء والرجـال الذيـن يفكـرون في الخيانـة».

اجتاحت الحديقة عاصفة من الضحك، سألت عبدول باستياء:

- لم أسمع هذه الأسطورة طوال حياتي، هل هي أسطورة بمبارية؟

أجابني ضاحكا:

- إنها أسطورتي الخاصة، لقد ألّفتها للتو.

قلت بحنق:

- أنـت أحمـق فاشـل في كل شيء، حـتى في تأليـف الأسـاطير، تبـا لـك! صديقـك يتألـم وأنـت تسـخر منـه.

قال بنبرة شريرة:

- لا يهم أن تتألم، المهم أن نستمتع!

أراد «إسـماعيل» أن يلطـف الأجـواء بعدمـا لاحـظ اشـتعال شرارة غضـبي، فتدخـل قائـلا:

- رجـاء لا تغضـب منـه أخـي مامـادو، أنـه يحـاول فقـط أن يرفـه عنـك، أرجوكمـا أن تُقلعـا عـن هـذه المحـاولات الفاشـلة، لأنـه هنـاك دومـا حـل بديل.

سألته بلامبالاة:

- أيـة بدائـل؟ نحـن عالقـون في هـذه الحديقـة منـذ أكـثر مـن شـهر ونـكاد نمـوت بـردا وجوعـا..

أجاب وعلى ثغره ابتسامة:

- اليـوم التقيـت بـأخ ينحـدر مـن «الكامـيرون» يدعـى «جـورج»، كان جالسـا بأحـد مقاهـي وسـط المدينـة، أشـار إلى لأقـترب منـه، خلـت للوهلـة الأولى أنـه يرغـب في أن ألمـع حـذاءه، لكنـه هـز رأسـه رافضـا وقـال لي:

- «لست سيدك لتمسح حذائي، نحن إخوة»

توقف قليلا وأكمل:

- دعـاني إلى تنـاول كـوب مـن الشـاي، ثـم سـألني عـن البلـد الـذي أنحـدر منـه، وعـن ظـروف قدومـي إلى هنـا، قبـل أن يطلـب مـني أن نلتقـي غـدا صباحـا في السـوق المركـزي ليدبـر لي عمـلا، شريطـة أن آخـذ معـي أصدقـائي الذيـن هـم أنتـم، أتمـنى أن توافقـوا عـلى هـذا العـرض.

تبادلنا نظرات مترددة، وهززنا رؤوسنا موافقين..

بدا لنا أن «جورج» سيكون مُنقذنا، وقد كان كذلك بالفعل.

نمنـا ونحـن نتحـرق شـوقا إلى بـزوغ فجـر اليـوم التـالي، ومعـه بـزوغ أمـل جديـد.

في تلـك الليلـة، حلمـت بأنـني عـبرت بـاب ضريـح «سـيدي يحـيى» بتُمبكتـو، تفاجـأت لأنـه لـم يكـن مدمـرا كمـا تركتـه الجماعـات المسـلحة الـتي هدمـت معظـم أضرحتنـا ومسـاجدنا، ربمـا لأن أحلامنـا تحـرص عـلى تجميـل الحقيقـة المشـوهة، وربمـا لأننـا نـأبى رؤيـة الأماكـن الـتي لطالمـا ارتبطنـا بهـا ارتباطـا عاطفيـا إلا عـلى الصـورة الجميلـة الـتي رسـخت في أعيننـا الطفوليـة.

توجهـت رأسـا نحـو قبـة الـولي، كان المـكان يعبـق برائحـة خشـب الصنـدل، فجـأة، تجـلى لي شـيخ يرتـدي رداء أبيـض فضفاضـا، اقـترب مـني وهمـس:

- «مـا زال طريـق حلمـك طويـلا ومليئـا بالعراقيـل والصعوبـات، لكـن يتحتـم عليـك أن تتحـلى بالشـجاعة اللازمـة لتكملـه حـتى نهايتـه.. لأنـك

ستتعلم الكثير من رحلة سعيك وراء حلمك»

***

-٨-

أفقنـا في الصبـاح الباكـر، حملنـا حقائبنـا عـلى أكتافنـا واسـتقللنا الحافلـة لنلتقـي بجـورج، كانـت عقـارب السـاعة تشـير إلى التاسـعة عندمـا توقفنـا قـرب البـاب الرئيـسي للسـوق، في مدخلـه، لمحـت امـرأة إفريقيـة جذابـة للغايـة، أثـارني لونهـا الأبنـوسي الجميـل، كانـت جالسـة تمضـغ العلكـة أمـام طاولتهـا الخشـبية الصغـيرة الـتي تعـرض عليهـا مراهـم وأبخـرة وبعـض الحـلي، لاحظـت نظراتي فأرسـلت إلى ابتسـامة كشـفت عن أسـنانها البراقـة، رددت عليهـا بابتسـامة ودخلـت إلى السـوق صحبـة أصدقـائي.

وجدنـا «جـورج» بانتظارنـا، كان يبـدو كمـا تخيلتـه بالضبـط، طويـل القامـة، قـوي البنيـة، كثيـف الشـعر، يرتـدي معطفـا جلديـا قصـيرا ويضع قرطـا لامعـا في أذنـه، كانـت ياقـة معطفـه المفتوحـة تـبرز عقـدا أسـود تتخللـه بعـض الأحجـار الصغـيرة الملونـة، تقـدم نحونـا، صافحنـا وعانـق «إسـماعيل» بحـرارة قائـلا:

- الرجل الأسود لا يخلف وعده أبدا!

تفـرس في وجوهنـا، ونظـر طويـلا إلى أجسـادنا وأقدامنـا، بـدا لنـا كمـا لـو كان يفحصنـا، اسـتفسرنا عـن أسـمائنا وبلداننـا، قبـل أن يشـير إلينـا لنتبعـه، تبعنـاه في صمـت، إلى أن توقـف أمـام دكان لبيـع الخـضر وطلـب مـن عبـدول أن يتقـدم، ثـم قـال للعجـوز صاحـب الـدكان باللهجـة المغربيـة الـتي لاحظـت إتقانـه لهـا:

- عمـي «صالـح»، وعدتـك بـأن أجلـب لـك مسـاعدا بـأسرع وقـت ممكـن، وهـا أنـا ذا أفي بوعـدي اليـوم، أقـدم لـك «عبـدول»

ثبَّت العم «صالح» عينيه طويلا على عبدول وقال لجورج بحدة:

- مـاذا سـأفعل بهـذا الكائـن؟ واضـح أنـه لا يصلـح لـشيء عـلى الإطلاق، ثـم إنـه يبـدو ككلـب بثـلاث قوائـم، لا أريـده، رؤيتـه سـتُنفر الزبائن.

ابتلع عبدول الإهانة، بينما أجابه جورج بحزم:

- دعه يساعدك، إنه على ضمانتي، وإلا...

قبل أن ينهي جورج جملته، وافق العم صالح على توظيف عبدول بأجر شهري قدره ثلاثمئة وخمسين درهما مغربيا، تركنا عبدول رفقة مشغله الجديد وأكملنا جولتنا الاستكشافية مع جورج، الذي دعانا إلى الجلوس لتناول الفطور بمقهى شعبي في السوق، واتفق معنا على أن نبدأ العمل كحمّالين، خفنا أن يتم طردنا من طرف الحمالين الآخرين، لكنه طمأننا بقوله إننا سنكون تحت حمايته، أعطى توجيهاته لحمَّاد وإسماعيل قبل أن يودعانا ليقفا في باب السوق بانتظار أن يطلب منهما بعض مرتاديه مساعدتهم في حمل مشترياتهم، بقيت جالسا معه أنتظر توجيهاته إليّ، أخذ رشفة من كوب شايه المُنعنع، تأملني قليلا وخاطبني قائلا:

- الشبه بينك وبين أخي الصغير «بُول» مخيف فعلا.

قلت:

- أتمنى أن أرى شبيهي.

رد بحسرة:

- للأسف لم يعد بوسع أي منا رؤيته في هذه الحياة.

قام من مكانه، لحقت به، أوقفني أمام متجر يبيع أحذية مستعملة، كانت تبدو في حالة جيدة، تفاجأت بقوله:

- اختر حذاء.

جربت حذاء رياضيا مريحا، دفع ثمنه، شكرته على كرمه، عانقني، كنت أهم بوضع حذائي الممزق داخل حقيبتي لكنه منعني من ذلك، قائلا إنه لم تعد لدي حاجة به، أخذه مني ووضعه داخل كيس بلاستيك ودعاني إلى التخلص منه، افترقنا في المدخل بعدما شدد على ضرورة انتظارنا له قرب الباب بعد موعد إغلاق السوق في الساعة الثانية مساء.

كان الخوف من المجهول ينهش صدري، لم أدر ما الذي حرضني على الوقوف بمحاذاة بائعة الحلي الجميلة، ربما لأشعر قليلا بالأمان.. كانت تحصي بتركيز دراهم قليلة حين دنوت منها، صافحتها وقدمت لها نفسي:

- السلام عليكم، أنا مامادو من مالي.. وأنت؟

- أنا «أماديا»، قدمت من النيجر قبل عام من الآن.

كنت سأقول لها إن اسمها جميل، مثلها تماما.. في اللحظة التي وقفت فيها أمامي امرأة شابة ترتدي جلبابا ملونا وطلبت مني أن أحمل قُفَّتها، كدت أسقط وأنا أحاول حملها من فرط ثقلها، قبل أن أتبع المرأة قلت لأماديا:

- أتمنى أن يتجدد لقاؤنا قريبا.

في طريقي بصحبة المرأة، توقفت مرارا لألتقط أنفاسي، وصلنا بعد عناء إلى باب منزلها، أعطتني أجري، شكرتها وعدت أدراجي إلى السوق.

انقضى يومي الأول في عملي الجديد بسرعة، كنت قد ساعدت سبعة أشخاص وشارف مخزون طاقتي على الانتهاء، المشكلة هي أن العديد من الناس قد ترسخت لديهم تلك الصورة النمطية عن الأفارقة السود الأشداء الذين بوسعهم حمل الجبال فوق أكتافهم، لهذا كان لزاما عليّ أن أتظاهر بالقوة لأحيا، رغم أن رحلتي نحو المغرب قد استنزفت قواي بالكامل.

التحق بي حماد وإسماعيل، كانا خائري القوى مثلي، أسندنا ظهورنا المتعبة إلى سور السوق ووقفنا ننتظر جورج وعبدول، قدما معا، دعانا جورج إلى تناول الغداء والمبيت في بيته، سرنا خلفه بخطى حثيثة حتى وصلنا إلى حي «الأطلس»، ولجنا أحد المباني القديمة، كانت الشقة التي يقصدها جورج تقع في الطابق الأرضي، أدار المفتاح في الباب ودخلنا، كانت شقته تتكون من مطبخ وحمام، غرفة للمعيشة وغرفتين ضيقتين للنوم، أعجبني ذوقه في الأثاث، ولفتت انتباهي

التماثيل الصغيرة للعذراء والمسيح عليه السلام، والصليب الخشب الذي يتوسط حائط غرفة المعيشة، على أحد الرفوف، وُضعت شموع بيضاء وعلبة مستطيلة ملونة بنفس ألوان علم الكاميرون، طلب منا أن نغير ملابسنا وأن نرتاح قليلا ريثما يقوم بتحضير الأكل، توجهنا نحو غرفة النوم التي أشار إليها، هناك، فوجئت بكَم هائل من المنحوتات الخشب المدهشة المتروكة بإهمال على الأرضية، بدلت ملابسي بسرعة واقترحت على أصدقائي أن نقصد المطبخ لنساعد جورج، جهزنا المائدة معا وتحلقنا حولها، كان قد أعد أجنحة دجاج مقلية شهية أرفقها بطبق من البطاطس المحشوة باللحم المفروم، تلذذنا بالأكل، بمجرد انتهائنا قال مبتسما:

- أدوا صلواتكم يا إخوتي دون أن تشعروا بأدنى حرج، ففي النهاية، نحن جميعا نصلي لإله واحد، ولو اختلفت دياناتنا وطريقة أدائنا للصلوات.

***

-٩-

أعطانا جورج هاتفه لنطمئن على أسرنا، اتصل حماد بزوجته واتصل إسماعيل بوالده المسن، بينما اطمأن عبدول على والدته وأشقائه، انتظرت دوري طويلا قبل أن أتمكن من تركيب رقم هاتف أمي، فرحت عندما زفت لي خبر وضع شقيقتي الكبرى «غالية» مولودها الأول، الذي أطلقت عليه اسم «يحيى» تيمنا بولينا الصالح، أغلقت الخط وشكرت جورج على إيوائه لنا ولطفه اللامتناهي معنا، نام أصدقاؤنا بسرعة من فرط التعب، وبقيت وحدي مستيقظا لأؤنس جورج، أطفأ الأنوار وأوقد شمعة، واقشعر بدني بعدما قال:

- طلبت من الرب أن يبعث لي إشارة صغيرة كي لا أنهي حياتي الآن، اليوم، علمت أن ظهورك في حياتي هو تلك الإشارة الغيبية.

لم أعرف كيف أرد عليه، لكنه لم يكن بحاجة إلى ردي، بقدر ما كان يحتاج إلى أن أصغي إليه، لذا، تركته يضيف:

- سأحكي لك قصتي التي ينوء قلبي العاجز عن النسيان بحملها، قبل أكثر من عامين، كنت رجلا سعيدا، يبلغ من العمر ستة وعشرين عاما، ويعيش رفقة والديه وأشقائه الأربعة وزوجته الجميلة الحبلى، في بيت دافئ بإحدى قرى الشمال الشرقي الكاميروني، كان جورج يملك دكانا صغيرا يبيع فيه منحوتاته الخشب، كانت زوجته توشك على وضع طفلهما الأول الذي اتفقا على أن يسمياه «ليونيل»، ولهذا كان يتأخر في العمل لعله يبيع أكبر عدد ممكن من منحوتاته، ليكون مستعدا لاستقبال الطفل الذي لطالما حلم به، كما يجب.. لم يكن يهمه أن يجهد نفسه بقدر ما كان يهمه أن يوفر كل حاجيات أسرته.. في ذلك اليوم المشؤوم لم يدرك أن بعض الأيام قد يبدو سيرها طبيعيا إلا أنها قادرة على تغيير مجرى حياة الإنسان ووشم ذاكرته إلى الأبد.. لذا، أنهى عمله في وقت متأخر، أغلق دكانه الذي كان يبعد

قليلا عن قريته وسلك طريق العودة إلى بيته وهو يحمل مهد طفله القادم الذي انتهى من صُنعه بعد أسابيع طويلة من الكدّ.. وهو يشعر بسعادة عارمة، كانت تلك آخر مرة شوهد فيها جورج الحي.. السعيد.

عاد جورج إلى قريته فوجدها منقلبة رأسا على عقب، سأل أحد العابرين عما يحدث، وأحس بالأرض تميد تحت قدميه حين أخبره بأن الجماعة المتطرفة «بوكو حرام» قد شنت هجوما في ذلك المساء على بيوت السكان المسيحيين، وأفرغت رصاصات بنادقها الغادرة في صدورهم، هرع جورج ليتفقد أسرته وهاله ما رأى.. كان وحوش «بوكو حرام» قد قتلوا كل أفراد أسرته دون استثناء، دنا كمجنون من زوجته ليتأكد من أن طفله ما زالت أمامه فرصة للحياة، وتعرض لصدمة قوية لدى اكتشافه أن القتلة قد صوبوا رصاصهم على بطن زوجته المنتفخ، سقط المهد من بين يديه وتحطم، مثلما تحطمت أحلامه وتشرذمت روحه.

هل لك أن تتصور أنهم أعدموا أسرة جورج وأسرا أخرى كثيرة في تلك الليلة الدموية، بجُرم ديانة وُلدوا ووجدوا أسرهم تعتنقها؟ كانت تلك المذبحة الشنيعة من بين أبشع المذابح في تاريخ الكاميرون المعاصر، ذبحوا عائلات بأكملها، لكنني أفلتت، لسبب تافه، سبب تافه جدا.. لأن قطار الموت فاتني.. بضع دقائق من التأخر قد تجعل الموت يؤجل قطف روحك إلى أجل غير مُسمى.. لذا، أعتبر بقائي قيد التنفس مجرد حادثة حياة. دفنت أفراد أسرتي، ومعهم دفنت جورج القديم، السعيد، واستحلت إلى واحد من الموتى الأحياء، فتقنيا، أنا لست حيا، بل أتظاهر بالعيش في انتظار المرور القادم لقطار الموت السريع.

أشعل سيجارة، نفث دخانها وأكمل حديثه وهو يُجهش بالبكاء:

- في بعض الأحيان يرفضنا الردى، يُرجئ أخذنا، ويترك الحياة تهبنا فرصة ثانية، فقط لتتفنن في تعذيبنا وتُمعن في إيذائنا، أتدري؟ أحيانا

أفكر في الانتحار، في قطع أوردتي كلها عساني أنجح في الالتحاق بوالديّ، بأشقائي «باتريك» و«كريستيان» و«ماري»، و«بول» الذي تشبهه حد التماهي، من أجل الالتقاء في الأبدية بحبيبتي ذات العشرين ربيعا «سينثيا» وبصغيري «ليونيل» الذي لم يحظ بفرصة واحدة ليفتح عينيه ويتأمل جمال العالم، وليضحك ويلعب ككل الأطفال الأحياء المحظوظين، كثيرا ما أحلم بأنني أركض خلفه في برارٍ فسيحة، أعتقد أن هذه البراري هي الجنة، ولهذا، أقاوم أفكاري الانتحارية التي لا تفارقني، كي لا يكون مصيري هو السقوط في هاوية الجحيم السفلي، لعلي ألتقي به لأتعرف عليه أخيرا في الحياة الأبدية.

صمت قليلا، أخرج شيئا من جيبه لم أتبين ماهيته، وتابع بشرود:

- لم يتبق لي من طفلي إلا جوربه الصوف هذا، الذي حاكته له والدته قبل أسبوع على رحيلهما معا، لماذا لم تسمح له الحياة بفرصة لارتدائه؟ ماذا لو كان الآن يشعر بالبرد؟

انهار باكيا، عانقته لأواسيه وقلت:

- آسف يا أخي لمصابك، أنا متأكد من شيء واحد هو أن الموتى لا يشعرون بشيء من مشاعرنا الدنيوية لأنهم في عالم أفضل بكثير من عالمنا القاسي.

كفكف عبراته، أطفأ الشمعة وقال:

- سامحني يا صغيري «بول»، لم أكن أرغب في أن أنقل لك عدوى حزني، تصبح على حلم.

غفونا، وقُبيل الفجر، استفاق وهو يصرخ ويبكي، كان يتصبب عرقا، قفزت من سريري لأطمئن عليه، قال لي بصوت متهدج:

- لا تجزع يا أخي، إنهم لا يتركونني بسلام منذ وقت بعيد.

سألته:

- من؟

سَرت قشعريرة قوية في كامل جسدي عندما أجابني:

- أرواح سكان قريتي الذين قضوا في المجزرة.. تلك الأرواح الهائمة المعذبة كروحي، استأنف نومك ودعني أتفاوض معها.

امتثلت لرغبته، عدت إلى فراشي لأحاول النوم مجددا، أحسست بالسلام الروحي يغمرني وأنا أسمعه يتلو صلاته:

- «ربي أنت ملجئي وملاذي في وقت الضيق، اهدني يا رب طريقا أبديا والطف بي لأن لطفك عظيم ، ما أعظمك يا رفيق وكافل وضامن سلامة مسيرة مُختاريك مدى الحياة، كن كفيلا لي في ما يحدث في غربة هذا العالم ، إلى أن أدرك الأرض التي وعدت بها محبيك المخلصين...

يا رب قوتك تكمل ضعفي، ونعمتك تكفيني وتغنيني، ليتك تعزيني بالمجد العتيد لتشجعني به وسط آلام هذا الزمان الحاضر، ليس مجدا آتيا أنتظره الآن، بل عرفني يا رب أن هذا المجد مدخر لي وينتظرني...

فلتكن مشيئتك يا ربي لا مشيئتي، وساعدني على قبول مشيئتك يا إلهي، وأن أُسَرّ بها وأترك كل أمر يتعارض مع خلاصي، لأنني أعلم أن طلباتي التي رُفضت، قد رُفضت بفضل عنايتك الإلهية، لأنك ترى ما هو صالح لي، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت..

لتكن يا رب إرادتك، فإذا كان لائقا أن أتألم وأنت سيد الخلاص، فحوّل العقوبة خلاصا».

غفا كطفل مُجهد، ما أن أنهى صلاته.

***

-١٠-

في ذلك الصباح البارد من أواخر شهر ديسمبر، كانت السماء حبلى بالغيوم الرمادية، فاجأنا الوَدق الغزير بمجرد وصولنا إلى السوق، وتلته حبات ضخمة من البَرَد الذي تلقفته الأرض العطشى بلهفة.

اختبأنا داخل السوق، التحقت بنا أماديا وهي تحمل طاولتها الخشبية بمشقة، لاحظت أن المطر قد بلل خصلاتها المتمردة مما جعلها تبدو كحورية بحر مُغوية، توقف المطر مؤقتا فتفرقنا طلبا لرزقنا.

لم يرتد السوق العديد من الناس في ذلك اليوم بسبب سوء أحوال الطقس، بحثت عن جورج، وجدته يساعد بائع أسماك في تنظيف أحشائها، توجهت نحوه وسألته باستغراب:

- ماذا تفعل يا أخي؟

قال بعصبية دون أن يرفع عينيه لينظر إلي:

- أحمل صناديق الخضر والفواكه، أساعد في تنظيف الأسماك، أؤمّن الحماية لبعض التجار، وأحرس دكاكينهم في أثناء أدائهم الصلاة بالمسجد المجاور للسوق، أفعل كل شيء وأي شيء.. ليس لأكسب رزقي وأتمكن من العيش بكرامة فحسب، بل لأنشغل قليلا وأنسى.

تركته ومضيت، كانت أماديا تقف قرب المدخل، دنوت منها كما تدنو الفراشة من النور غافلة عن إمكانية الاحتراق، التفتت نحوي وقالت:

- إنه يوم سيئ، لم أبع شيئا على الإطلاق، في الأيام المماثلة، يتحتم عليك أن تجيد قراءة إشارات السماء كي لا تغادر فراشك وبيتك وتصاب بالخيبة.

ربتُ على كتفها وقلت:

- أعتقد أننا اختبرنا أياما أسوأ بكثير من هذا اليوم، ولهذا سننجو مهما قست الظروف، ومهما عاندتنا الدنيا.

أجابتني بابتسامتها الساحرة، كانت توشك على حمل طاولتها لتعود إلى مسكنها عندما عرضتُ أن أساعدها، فكرتْ مليا قبل أن توافق على عرضي، قالت لي إن الغرفة التي تسكن فيها تقع في سطح إحدى العمارات القريبة من السوق، سرت إلى جانبها وقلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي، قبل أن نصل، سألتها إن كان لديها مرهم بوسعه شفاء جراح قدمي التي أبت أن تلتئم، أطلقت ضحكتها الرنانة وقالت:

- لدي أدوية سحرية بإمكانها أن تشفي كل شيء، بعض زبائني الأوفياء يلقبونني بالساحرة أماديا، لكن إياك أن تفشي سري وإلا سأؤذيك بسحري!

قلت وأنا أتأمل عينيها البنيتين الواسعتين:

- لا يهمني أن تلقي عليّ ساحرة جميلة مثلك لعنة أبدية، أو حتى أن تعذبني بتحويلي إلى دمية «فودو»!

لم تجبني، وأخيرا توقفنا أمام العمارة التي تقطن بها، صعدنا الأدراج التي بدا لي أنه لا نهاية لها، وضعتُ طاولتها قرب بابها، عَرَضَتْ عليّ الدخول إلى غرفتها الغريبة التي كانت تشبه مختبرا سحريا، جلستُ فوق أريكة متهالكة، بينما توجهت هي نحو ركن المطبخ وشرعت تُنقب في أوعية زجاجية ممتلئة عن آخرها بأعشاب لم يسبق أن رأيتها طيلة حياتي، غادرت المطبخ بعد لحظات وهي تحمل وعاء مملوءا بمنقوع خلطة سرية من الأعشاب، نَزَعَتْ حذائي وجوربيّ وأمرتني بأن أغطس قدمي داخل الوعاء، أذعنت لها، دعكتهما بيديها الحانيتين بطريقة حولت ألمي إلى خدر لذيذ سرى في أدق شراييني.

انتهت ومسحت قدمي بمنشفة نظيفة، وأخذت مرهما وضعته على جراحي، جلست أمامي وسألتني إن كنت أشعر بتحسن طفيف، هززت رأسي مؤكدا ووجهت لها سؤالي:

- هل أنت ساحرة حقيقية؟

صمتت لبُرهة وأجابت:

- هناك من يعتبرونني ساحرة، لكنني أعتبر نفسي بائعة للأمل.

أدهشتني كلماتها، فطلبت تفسيرًا:

- ماذا تقصدين ببائعة للأمل؟

- أقصد أنني أبيع في الخفاء منشطات جنسية للرجال المحبطين، وأحضر طلاسم محبة للنساء اليائسات اللاتي يرغبن في إشعال جذوة حب أزواجهن لهن من جديد، جميع هؤلاء المصابين باعتلال اليأس عادوا لرؤيتي وأكدوا لي أن وصفاتي وطلاسمي قد نجحت بشكل ساحر، لكنني لا أعتقد أنني كنت السبب وراء نجاحها، بقدر ما أنجحها استعدادهم النفسي لزراعة بذور الأمل في أرواحهم التي كادت تذبل من جراء استحواذ اليأس عليها، أعترف لك بأنني امرأة أمية، لا أجيد القراءة ولا الكتابة، فكيف لي أن أكتب تعويذات ناجحة؟ في نظري، لتنجح التعويذة يلزم الإنسان أن يؤمن بها، ويقتنع في أعماقه القصيّة بأن الوصفة السحرية ستشفيه، وحينها فقط سيشفى جسده وقلبه المعتلان، لأن روحه ستمارس عليهما طقوس الإيحاء، وهذه هي خلاصة كل ما تعلمته في مدرسة الحياة.

راقتني نظريتها، وفكرت في أنها محقة، تذكرت كلمات أمي وهي تحاول بث القوة في نفسي بعد وفاة والدي:

- «اليأس هو البوابة التي يعبر منها طيف الموت».

قامت لتعد شايها السحري حسب قولها، لم أستطع منع عيني من التجول طويلا في تضاريس جسدها المكتنز، عادت، صبت لي كوبا من الشاي وسألتني:

- كم عمرك؟

- اثنان وعشرون عاما.

- أنا أفوقك سنا وخبرة، وفي رصيدي عدة خيبات.

- لكل منا خيباته الخاصة.

- أجل.. ربما تلك الخيبات المتراكمة على مر السنين هي التي جعلتنا نهرب من بلداننا بذريعة الهجرة، لأصدقك القول، لم يسبق أن فكرت ولو لثانية واحدة في مغادرة موطني، لكن أحيانا، لا تتبقى أمامك من وسيلة مساعدة عدا اختيار الحل المتطرف، حتى لو تسبب في إيذائك لنفسك ولأحبائك.. قبل نحو ثلاث سنوات، كنت أعيش بسعادة مع زوجي المزارع البسيط وابنتي الصغيرة «شاد» التي ستطفئ شمعتها الخامسة في مارس، في ذلك المساء الذي كان يصادف نهاية السنة، لاحظت أن السماء كانت تزمجر بغضب، لكنني لم أهتم لإشاراتها وأكملت تحضير وجبة العيد، كنت أعد لزوجي أطباقه المفضلة عندما سمعت طرقا على الباب، فتحت فارتمت جارتي في أحضاني وهي تنتحب، أخبرتني حاستي السادسة النسائية بأن زوجي قد أصابه مكروه ما، وبالفعل، سمعتها تقول وسط دموعها إن أولئك القتلة الذين يطلقون على أنفسهم لقب جهاديين قد قاموا بإحراق ما يزيد عن ثلاثين رجلا مسلما من بينهم ابنها وزوجي، أحرقوهم أحياء بتهمة رفض التجنيد الإجباري، كانت تلك هي هديتهم الدموية لبلدهم بمناسبة رأس السنة.

قلت:

- آسف عزيزتي.

نهضت من مكانها لتجلب شيئا، عادت وهي مبتسمة، وضعت أمامي صورة طفلتها التي هي نسخة منها، وقالت:

- هذه صغيرتي «شاد»، هي كل ما تبقى لي، وهي الآن بعهدة والدتي، ومن أجلهما، سأفعل المستحيل لأعبر إلى إسبانيا.

ترقرقت الدموع في عينيها، اقتربت منها ومسحت دموعها، ضممتها إلى صدري، أحسست بأنفاسها اللاهثة، وقبل أن أغرق في سوادها الجميل الذي أضفت عليه حبات عرقها لمعانا يحبس الأنفاس، قلت لها:

- آن الأوان لتنزعـي ثـوب الحـداد وتنبعـثي مـن شرنقـة اليـأس يـا بائعـة الأمـل.

***

-١١-

لـم أكـن أخطـط للاحتفـال بـأول ليلـة رأس سـنة أقضيهـا بعيـدا عـن أهـلي وبلـدي الحبيـب، إلا أنـي اليـوم، عندمـا أسـترجع ذكـرى تلـك الليلة السـحرية، الـتي فتحـت لنـا مـزلاج بـاب الأمـل في عـام أجمـل، تتحقـق فيـه أحـلام كدنـا نيـأس منهـا مـن فـرط تأجيـل الدنيـا إهداءهـا لنـا، أفكـر في أنهـا كانـت مـن بـين أروع احتفـالات الأعيـاد في حيـاتي.

لكنـني لا أسـتطيع منـع نفسي مـن التسـاؤل في أوج لحظـات يـأسي: هـل كنـت سـأحتفل بانتهـاء سـنة خضنـا فيهـا عـدة تجـارب وتحديـات صعبـة في معـترك الحيـاة، ولـو زارتـني حينهـا رؤيـا اسـتباقية أو تحذيريـة، تنبئـني بـأن عربـة هدايـا السـنة الجديـدة سـتتوقف عندنـا لتخـبئ لنـا تحـت شـجرة الميـلاد هدايـا مُموّهـة، مفخخـة، سـتنفجر في وجوهنـا لحظـة فتحنـا لهـا، وتتطايـر شـظاياها في أرواحنـا المثقلـة بالأحـزان لتنسـف مشـاعرنا؟

لا أملـك إجابـة حاسـمة لسـؤالي المـؤرق، واثـق مـن شيء واحـد فقـط، هـو وأن الحيـاة قـد علمتـني منـذ نعومـة أظفـاري أن الاحتفـالات والأعيـاد ليسـت إلا حيلـة مبتكـرة اخترعهـا الإنسـان ليقتنـص فرصـة عابـرة للفـرح، رفقـة أحبـاء لا نعلـم بالضبـط مـتى سـيحين الموعـد المحـدد لافتراقهـم عنـا في محطـة الحيـاة، لهـذا أقـول إنهـا كانـت ليلـة تسـتحق الاحتفـال.

احتفلنـا لأننـا رغبنـا في أن ننسـلخ لوقـت قصـير عـن واقعنـا البائـس، لنشـارك في مسرحيـة الحيـاة الطبيعيـة، ولـو ككومبـارس، حـضّر كل واحـد منـا أكلـة مميـزة مـن بلـده، قطعنـا قالـب الحلـوى الـذي ابتاعـه جـورج، ورقصنـا بفـرح طفـولي عـلى أنغـام كل مـن أسـطورة موسـيقى «الريغـي» الراحـل «بـوب مـارلي»، والمطـرب الكامـيروني الراحـل «لايـبرودي مبانغـا»، وملكـة إيقـاع «الديـدادي» المـالي الـذي يتراهـن شـبابنا خـلال احتفالاتنـا ومناسـباتنا عـلى مـن سـيجيد الرقـص عليـه، والسـيدة «ناهـاوا دومبيـا»، وأخـيرا، ملكـة المطربـات السـنغاليات «فاتومباولـو»، الملقبـة بـ»فارمـارا».

دقت الساعة الثانية عشرة، تبادلنا التهاني، راقني قول جورج:

- أتمنى أن يكون العام الجديد ألفين وخمسة عشر هو عام تحقيق أحلامكم التي مكثت لوقت طويل في قائمة أمانيكم المعتقة.

على حين غرة، أفسد حمّاد بهجتنا المصطنعة بقوله لنا:

- اعذروني يا إخوتي، لم نُرِد أن نفسد ليلتكم، لذا أجلنا أخباركم بأمر مهم يخصني أنا وإسماعيل.

استفسرناه بنظراتنا، صمت قليلا وقال:

- في الحقيقة، لقد تعبنا من حمل الأثقال في السوق من أجل جني دراهم معدودة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولهذا قررنا الذهاب للعمل في ضيعة فلاحية بنواحي مدينة «مكناس»، لعلنا نجني مالا يكفينا كي نتوجه إلى مدينة «سبتة» لترجمة حلمنا على أرض الواقع.

أردف إسماعيل:

- أتمنى أن تتفهمونا وتسامحونا، لم نعد قادرين على التحمل أكثر.. شكرا لك أخي جورج على كل شيء، شكرا لكما عزيزيّ مامادو وعبدول، لن ننساكما أبدا.

سألته:

- كيف عثرتما على هذا العمل؟ ولماذا كل هذا التكتم؟

أجابني:

- التقيت أنا وحماد بصاحب الضيعة في السوق، لاحظ قوتنا وطاقتنا ولهذا عرض علينا توظيفنا، لم نخبركم فورًا لأننا لم نكن قد توصلنا بعد إلى قرار نهائي.

لم يعلق جورج على كلامهما، لكن استياءه كان واضحا، همس عبدول في أذني:

- «الكل يغترف من طنجرة المعتوه ويمضي»، كما يقول مَثَلنا.

نظرت إليه شزرا، سكت، بعد لحظات، قصد حماد وإسماعيل

غرفـة نومهمـا، جلسـت أنـا وعبـدول مـع جـورج، حاولـت أن أخرجـه مـن صمتـه بقـولي:

- لا تحزن يا جورج، أعدك بأنني سأظل معك إلى الآخر مهما حدث.

قال عبدول:

- وأنـا كذلـك.. يسـتحيل أن أتخـلى عنـك يـا أخـي الكبـير، أعـدك بأنـه لـن يفرقنـا شيء إلى أن نحقـق حلمنـا المشـترك، ونعـبر إلى الإلـدورادو.

ارتسمت على وجهه ابتسامة مضيئة، وقال:

- ممـتن لهـذا الحلـم الـذي جمعـني بكمـا يـا أخـويّ، أنتمـا عائلـتي، والمنـارة الـتي تمنعـني مـن الغـرق في بحـر الأسى.

اسـتأذننا، غـاب للحظـات وعـاد وهـو ويحمـل علبتـين، أعطـاني علبـة حمـراء وأعطـى لعبـدول علبـة صفـراء، كانـت العلبتـان مغلقتـين بشريـط أخـضر، قـال لنـا:

- أتمـنى أن تروقكمـا هديتاكمـا، لقـد حرصـت عـلى تغليـف العلبتـين بألـوان علـم بلدكمـا مـالي.

فتحنـا علبتينـا بسرعـة كطفلـين فضوليـين، شـهقت حـين وجـدت في علبـتي مركبـا خشـبا ذا أشرعـة صغـيرة، كان منحوتـا بإتقـان، وكان جليـا أن جـورج هـو مـن قـام بصنعـه، لاحظـت أنـه عمَّـده باسـم: «الحلـم الإفريقـي»، عانقتـه وشـكرته طويـلا عـلى هديتـه المميـزة، أجابـني:

- لا شـكر بـين الإخـوة صغـيري «بـول»، أتمـنى أن تعـبر سـالما إلى الضفـة الأخـرى ليتجسـد حلمـك أيهـا الرجـل الإفريقـي الأصيـل.

تفاجـأت أكـثر حينمـا أخـرج عبـدول مـن علبتـه منحوتـة ذات شـكل بيضـاوي نُقشـت عليهـا كلمـة «الله»، نظـر إلى جـورج بدهشـة، علـق هـذا الأخـير:

- أنـا عـلى يقـين بـأن الله العظيـم لـن يتخـلى عنكمـا أبـدا، وسـيحقق حلمكمـا إذا لـم تيأسـا مـن رحمتـه وتهجـرا طريقـه.

كانـت هديتنـا لجـورج مختلفـة، كنـا قـد قررنـا أن نهديـه عقـدا ملونـا

جديـدا ابتعتـه مـن أماديـا، فـرح جـورج بالعقـد، وضعـه حـول عنقـه فـوق عقـده الأسـود القديـم، تـسرب الحـزن إلى قلـبي لـدى سـماعه يقول:

- اعـذراني لأنـه ليـس بوسـعي نـزع عقـدي القديـم كمـا تقتـضي العـادة، لأنـه آخـر مـا تبقـى لي مـن زوجـتي «سـينثيا».

***

-١٢-

اشرأبت أعناق كل التجار ومرتادي السوق الفضوليين الذين تجمعوا بسرعة صاروخية للاستمتاع بمشاهدة الشجار الحاد الذي نشب بين عبدول ومشغله العم صالح، في صبيحة ذلك اليوم الكئيب من أواخر شهر يناير، كان الزَبَدُ يتناثر من فم العم صالح الخالي من الأسنان، كان يُحكم قبضته على مكيال كبير ويهدد عبدول بتحطيم جمجمته الفارغة ويسبه قائلا:

- الله يلعن والديك يا «عزّي* بَمْبارا»!

فارَ دم عبدول، وأجابه:

- تبا لك أيها العنصري النتن! لا تشتم والدي وإلا سأشرب من دمك وأسحق عظامك!

أتى جورج ليتدخل بسرعة ويحاول فض هذا الاشتباك الذي لم نعرف سببه، صاح العم صالح في الجمع:

- أرأيتم؟ قلت لكم من قبل إنه من آكلي لحوم البشر!

بحركة بهلوانية سريعة، أمسك عبدول مكيالا صغيرا وضرب به العم صالح على وجهه، أصابه في خده، تدفق الدم من جرح صالح الذي سقط مغشيا عليه من فرط الوجع، وسط تجمهر الناس وصياحهم الغاضب المطالب برأس الزنجي العنيف عبدول، نجح جورج في سحبه خارج الدكان، ليختفيا في لمح البصر بين الباعة المتجولين، ركضت لألحق بهما، وجدتهما في الزقاق الحجري الجانبي المحاذي للسوق، سألت عبدول وأنا ألهث:

*عْزّي: بكسر حرف الزاي، كلمة عنصرية تعني باللهجة المغربية: زنجي.

- مـاذا دهـاك يـا أخـي؟ هـل فقـدت صوابـك بالكامـل؟ منـذ مـتى أصبحـت عنيفـا؟

أجابني وهو ويرتعش:

- لقـد طفـح الكيـل، تعبـت مـن تجـرع إهانـات ذلـك العجـوز البشـع، لقـد شـتم أصـولي ووالـديّ فقـط لأنـه يدعـي أنـني بطـيء كسـلحفاة برمائيـة، كل يـوم، أعمـل بأقـصى سرعـة لأسـلم الطلبيـات للزبائـن، ورغـم ذلـك لا يفـوت فرصـة للسـخرية مـني وإهانـتي بسـبب شـكلي.

تدخل جورج:

- لا عليـك يـا أخـي الأحمـق، لـكي تحيـا، عليـك أن تتعـود عـلى سـماع مثـل هـذه الإهانـات مـن حـين إلى آخـر.

رد عليه وهو ويبكي:

- كيـف لي أن أتعـود عـلى شـتم أصـولي؟ أسـمعته يقـول لي: «عـزّي بمبـارا»؟

أجاب:

- كلمـة «عـزّي» باللهجـة المغربيـة تعـني: زنجـي، وهـي ليسـت بشـتيمة بقـدر مـا هـي كلمـة وصفيـة تطلـق عـلى كل شـخص ذي بـشرة داكنـة، حـتى المغاربـة السـود، وبالنسـبة إلى «بَمْبـارا»، فهـي كلمـة عنصريـة متوارثـة منـذ قـرون، منـذ اسـتقدم أحـد سـلاطين الدولـة السـعدية عبيـدا مـن قبيلـة البمبـارا ليعملـوا في البنـاء.

صاح بتحد:

- لست عبدا! أنا رجل حر.

قال جورج:

- يتحتم علينا أن نذهب الآن قبل أن يستدعوا الشرطة.

***

-١٣-

عقب حادث السوق، اقترح علينا جورج الذهاب إلى مدينة طنجة لنَدنُو من الحلم، لم يكن لدينا ما نخسره بعد فقدنا عملنا في السوق، قام جورج ببيع أثاث بيته، كما باع جزءا من منحوتاته الخشب -التي أسرَّ لي بأنه صنعها كلها بالمغرب، واحتفظ بأغلاها لديه- لمالك «بازار» بثمن بخس، وبذلك تمكن من تأمين مبلغ كاف لانتقالنا إلى طنجة «جوهرة الشمال»، لنبدأ من الصفر، كأجدادنا الرُّحَل.

قُبيل اليوم الموعود، قصدت غرفة أماديا لأودعها كما يليق بملكة جنوبية مثلها، كنت قد ابتعت أخيرا هاتفا جوالا، أعطيتها رقمي لنظل على تواصل، وأعطتني تميمة حمراء مماثلة لتلك التي لا تفارق معصمها، قالت لي إنها ستحميني من الشرور التي قد أصادفها في الطريق، شرط ألا أنزعها من يدي أبدا.. قَبَّلتها وغادرت.

في الليلة السابقة لرحلتنا الجديدة، صرح لنا عبدول برغبته في زيارة ضريح «سيدي أحمد التيجاني» الذي له مريدون وأتباع كثر لطريقته في مالي، امتثلنا لرغبته، توغلنا في أزقة المدينة العتيقة المتشعبة مع جورج الذي أصر على مرافقتنا، وصلنا إلى الضريح بعد مسير طويل جدا.. أخبرنا جورج بأنه سينتظرنا قرب الباب، وقبل أن ندير ظهرينا لنلج هذا الضريح العريق، قال:

- اطلبا من وليكما الصالح أن يُعينني على الصبر والتحمل..

أدينا الصلاة، وبعدها، شرع شيوخ من المتصوفة في قراءة الأوراد، رددت معهم في خشوع:

- «اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، واغفر لي بقدرتك فلا أهلك وأنت رجائي، رب كم من نعمة أنعمت

عـلى بهـا قـلّ لـك عندهـا شـكري، وكـم مـن بليـة ابتليتـني بهـا قـل لـك عندهـا صـبري، فيـا مـن قـل عنـد نعمتـه شـكري فلـم يحرمـني، ويـا مـن قـل عنـد بليتـه صـبري فلـم يخذلـني، ويـا مـن رآني عـلى المعـاصي فلـم يفضحـني، يـا ذا المعـروف الـذي لا ينقـضي أبـدا ويـا ذا النعمـاء الـتي لا تحـصى عـددا، أسـألك أن تصـلي عـلى نبيـك محمـد وعـلى آلـه وصحبـه أجمعـين...

الحمـد لله الـذي هدانـا لهـذا ومـا كنـا لنهتـدي لـولا أن هدانـا الله.. سـبحان ربـك رب العـزة عمـا يصفـون، وسـلام عـلى المرسـلين، والحمـد لله رب العالمـين».

في الصبـاح الباكـر، حملنـا متاعنـا القليـل وقصدنـا محطـة القطـار، كنـت حزينـا كـوني سـأغادر فـاس دون أن تتسـنى لي فرصـة زيـارة أقـدم جامعـة في العالـم «جامعـة القرويـين»، وأقـدم «مارسـتان» في العالـم كذلـك، ولكـن رغـم حـزني منّيـت نفـسي بالعـودة إلى فـاس -التـوأم الروحـي لتمبتكـو- الـتي بصمـت قلـبي وذاكـرتي ذات يـوم قريـب، بعـد أن أحقـق حلمـي الـذي أحملـه بـين يـدي بعنايـة كمزهريـة زاهيـة الألـوان.

امتطينـا قطـار الحلـم الـذي انسـاب فـوق سـكة الأمـاني، ليعانـق أرض طنجـة الخصبـة، ملتقـى الأحـلام.

***

فَلَرُبَّتَما فاض الْمَحْيَا.. ببُحور الموج من اللُّجَج

(ابن النحوي)

على ضفاف الحلم

-١-

بعـد طـول حلـم، توقـف قطارنـا بمحطـة طنجـة ذات الآفـاق اللامحـدودة، طنجـة البوهيميـة الـتي وقـع في غرامهـا العديـد مـن العظماء الذيـن وطئـوا ترابهـا، هـذه المدينـة السـاحرة، الزاخـرة بأسـاطير وحكايـات شـعبية ترجـع إلى حقبـة الإمبراطـور الرومـاني «هرقليـس»، «طنجيـس» الضاربـة جذورهـا في عمـق التاريـخ، والـتي قـال عنهـا الدبلومـاسي والرحالة الأندلـسي «الحسـن الـوزان» الملقـب بـ»ليـون الإفريقـي» -والـذي يعـود إليـه الفضـل كذلـك في التعريـف بالسـحر الأسـطوري لتمبكتـو، ولإفريقيـا القديمـة عمومـا- في مخطوطتـه النـادرة «كوسـموغرافيا إفريقيـا»: «إنهـا مدينـة عظيمـة أزليـة، ونمـوذج للمـدن التاريخيـة الـتي يلفهـا الكثـير مـن السـحر والغمـوض».

اجتزنـا بـاب محطـة قطـار طنجـة، كان الطقـس دافئـا نسـبيا، وكان النسـيم البحـري منعشـا، فوجئـت حينمـا وجدنـا بانتظارنـا شـابا عشرينيـا وسـيما، عرفـت فيمـا بعـد أنـه ينحـدر مـن الكامـيرون، تقـدم نحونـا، صافحنـا مُرحّبـا، قبـل أن يعانـق جـورج بحـرارة ويقـول باسـما:

- سـعيد لأننـا التقينـا أخـيرا بعـد مـضي عـدة أشـهر عـلى افتراقنـا.. اشـتقت إليـك كثـيرا أخـي العزيـز.

أجابه جورج:

- وأنـا بـدوري اشـتقت إليـك أخـي «ميكائيـل»، أتمـنى أن تكـون كل أمـورك عـلى أحسـن مـا يـرام.

سـاعد ميكائيـل جـورج عـلى حمـل الكرتونـة الـتي تحـوي منحوتاتـه الخشـبية، أوقـف سـيارة أجـرة كبـيرة، في البدايـة، لـم يوافـق سـائقها عـلى إقلالنـا، أعتقـد أنـه خـشي أن نؤذيـه، وافـق بعدمـا وعـده جـورج بـأن يمنحـه ضعـف أجرتـه، صعدنـا عـلى مـتن السـيارة، وسـمعت ميكائيـل

يقـول للسـائق:

- ستأخذنا إلى حي «فال فلوري».

كانـت حركـة السـير في ذروتهـا، ظللنـا نتأمـل المدينـة السـحرية مـن خلـف زجـاج السـيارة، مررنـا بمحـاذاة الشـاطئ، صـاح عبـدول كالأطفـال:

- أخـيرا تحققـت أمنيـتي في رؤيـة شـاطئ حقيقـي، إنـه أجمـل بكثـير ممـا يبـدو عليـه في التلفـاز.

شـعرت بسـعادة عارمـة، كنـا للمـرة الأولى نمـر قـرب شـاطئ حقيقـي، في مـالي، لا يوجـد شـواطئ، كـون بلدنـا بلـدا داخليـا غـير سـاحلي، تحُـدّه مـن الشـمال كل مـن موريتانيـا والجزائـر، بوركينـا فاصـو وسـاحل العـاج مـن الجنـوب، النيجـر مـن الـشرق، السـنغال مـن الغـرب، وغينيـا الاسـتوائية مـن الشـمال الـشرقي، لـذا، لـم يسـبق أن رأينـا البحـر مبـاشرة، بالنسـبة لنـا، كان البحـر مكانـا يكتنفـه الغمـوض، لا نسـمع عنـه إلا في أسـاطيرنا المحليـة.

وأخـيرا وصلنـا إلى حـي «فـال فلـوري» المكتـظ بالسـكان، دفـع جـورج للسـائق جـاف الطبـع، ثـم سرنـا مـع ميكائيـل بـلا توقـف إلى أن عبرنـا بـاب مبـنى جديـد، صعدنـا الـدرج الطويـل، توقـف ميكائيـل أمـام بـاب شـقة تقـع في الطابـق الأخـير، فتـح البـاب ودلفنـا وراءه، كانـت الشـقة الـتي اختارهـا لنـا صغـيرة ودافئـة، مكونـة مـن غرفـة للمعيشـة وغرفـة للنـوم، إضافـة إلى حمـام ومطبـخ تتسـلل إليـه أشـعة الشـمس مـن خـلال نافـذة ذات إطلالـة سـاحرة، سـلم ميكائيـل المفتـاح لجـورج وقـال:

- لقـد ابتعـت الأسرة الثلاثـة والمـلاءات والأريكتـين، إضافـة إلى الموقـد الصغـير والأواني الـتي أوصيتـني باشـترائها مـن سـوق «كاسـابارباطا» المخصصـة لبيـع الملابـس والأثـاث المسـتعمل، إذا كان ينقصكـم شيء مـا فمـا عليـك إلا إخبـاري لأجلبـه لكـم عـلى الفـور.

شـكره جـورج، ثـم سـأله بكـم ابتـاع كل تلـك الأشـياء ليـؤدي لـه المبلـغ الـذي دفعـه، رفـض ميكائيـل قائـلا:

- لـن أقبـل أن تعيـد لي درهمـا واحـدا مـن المبلـغ البسـيط الـذي دفعتُـه، مهمـا فعلـت فلـن أفيـك حقـك أبـدا.. لـن أنسى احتضانـك لنـا وإيـواءك إيانـا أنـا والإخـوة المهاجريـن في بيتـك بفـاس، بيتـك الـذي كان في نظرنـا محطـة الأحـلام قبـل أن نكمـل طريقنـا نحـو طنجـة، البوابـة المفضيـة إلى أوروبـا.

ابتسم له جورج وأجابه:

- لا داعي لشكري عزيزي، نحن إخوة.

قبل أن ينصرف ميكائيل، قال:

- نسيت أن أقـول لـك إنـني قـد تحدثـت مـع مشـغلي المقـاول الفرنـسي «سيباسـتيان» بخصـوص قـوة تحملـك وإخلاصـك، ووافـق عـلى تشـغيلك في موقـع البنـاء الـذي أعمـل بـه، سـأمر لآخـذك معـي بعـد غـد عـلى السـاعة السادسـة صباحـا.

سألتُ جورج:

- لـمَ لا تحـاول عـرض منحوتاتـك الخشـب الرائعـة في الشـارع، لـكي تكسـب قُوتَـك مـن فَنّـك، أليـس ذلـك أفضـل مـن أن يضيـع جهـدك البـدني في أشـغال البنـاء؟

رد بحسرة:

- كانـت تلـك أول فكـرة تبـادرت إلى ذهـني في بدايـة اسـتقراري بالمغـرب، إلا أنـني اكتشـفت فيمـا بعـد أن الأمـر صعـب للغايـة، المشـكلة هـي أن معظـم النـاس لا يقـدرون فـني، ولا يرغبـون في اشـتراء منحوتـات يجـدون ثمنهـا باهظـا، دون أن يفكـروا في المجهـود اليـدوي الـذي يتطلبـه صنعهـا، لكـن إذا كانـت لا تـزال لـدي أمنيـة في جُعبـة الأمـاني الـتي لـم تتحقـق، فإنـني أتمـنى أن يـرى النـاس فـني ويُقـدروه ذات يـوم، ولـو بعـد رحيـلي إلى العالـم الآخـر، مثلمـا قـدروا فـن الرسـام الكبـير «فـان غـوغ»، بعـد مـضي سـنين عـلى موتـه.

قلت:

- ستتحقق أمنيتك وأنت على قيد الحياة، لأن الله أنعم عليك بموهبة فذة.

قال بصوت مُوَشَّى بالأسى:

- أتدري؟ رغبت مرارا في التخلي عن موهبتي لأنها كانت سبب مأساتي، لكنها لم تَرضَ أن تتخلى عني.

***

-٢-

في اليـوم الثالـث لوصولنـا إلى محطتنـا الجديـدة، شـعرنا أنـا وعبـدول بالملـل، لأن جـورج كان منشـغلا بعمله الجديـد، ولـن يعـود إلى البيـت إلا بعـد حلـول السـاعة السادسـة مسـاء، لـذا اقـترح عـليّ عبـدول أن نخـرج معـا لنقـوم بجولـة استكشـافية لهـذه المدينـة المُغربيـة، وافقـت عـلى اقتراحـه وبدأنـا مغامرتنـا في الشـوارع الفسـيحة لطنجـة.

امتطينـا حافلـة عموميـة أقلتنـا إلى الشـاطئ، نزعنـا حذاءينـا وسرنـا عـلى الرمـال الذهبيـة، ودون سـابق إنـذار، انطلـق عبـدول الأحمـق كسَـهم مُقَـوَّس نحـو البحـر، غطـس قدميـه في أمواجـه الصغـيرة دون أن يأبـه لتحذيـراتي لـه مـن بـرودة الميـاه، قبـل أن يـشرع في رشي بهـا بطريقـة صبيانيـة، أحسسـت بانتعـاش لا مثيـل لـه لـدى ملامسـة المـاء الأُجـاج لمَسـامي.

كان عبـدول يتـصرف كطفـل عـثر لتـوه عـلى مغـارة سـحرية، لـم يرغـب في مغـادرة الشـاطئ إلا بعدمـا وعدتـه بأننـا سـنعود إلى ضفتـه عمـا قريـب.

تجولنـا عـلى الشـاطئ الـذي وجدنـاه مذهـلا بنخلاتـه السـامقة، مقاهيـه وفنادقـه الفخمـة، ومحلاتـه التجاريـة المختلفـة، ولجنـا «بـازارا»، بهرتنـا مهـارة الصُنـاع التقليديـين المغاربـة، لفتـت انتباهـي منفضـة سـجائر ملونـة مصنوعـة مـن الخـزف، ابتعتهـا كهديـة لجـورج، ثـم أكملنـا الجولة.

استنشـقنا روائـح الأطعمـة الشـهية المنبعثـة مـن المطاعـم الشـعبية، المنتـشرة عـلى الشـاطئ، أحسسـنا بالجـوع، اخترنـا الجلـوس عـلى تـراس أقربهـا، طلبنـا طاجـين السـمك بالخـضر والتوابـل الخاصـة عـلى الطريقـة الطَنْجيـة الشـمالية، كان مـن ألـذ الأطبـاق الـتي تناولتهـا في حيـاتي.

اسـتأنفنا سـيرنا، وفجـأة، لفـت انتباهـي مطعـم عُلقـت عليـه لافتـة كُتـب عليهـا باللغتـين العربيـة والفرنسـية وبحـروف التيفينـاغ الأمازيغيـة

«مطعم أنوال»، لاحظت ورقة ألصقت على واجهته الزجاجية، قرأت: «مطلوب نادل للعمل»، دون تفكير، عبرت بابه رفقة عبدول ووجدت نفسي داخل مطعم مغربي حميمي، راقتني طاولاته ومقاعده المرتبة، التي تمزج بين النمط المغربي التقليدي والنمط الأوروبي، وأعجبتني الصور التي تزين جدرانه، بعضها كان يجسد أشهر معالم طنجة، كمغارة هرقل، سور «المعكازين»، والسوق الداخلي، والبعض الآخر كان عبارة عن صور رجال لم أتعرف عليهم، رجحت أنهم من المشاهير المغاربة، هز عبدول يدي وهو ويشير إلى أطباق خزفية مستديرة، معلقة على جدار صغير، وعليها صور مناظر طبيعية خلابة لكل من مدينتي طنجة والحُسيمة.

خرج شاب ثلاثيني من المطبخ، كان طويل القامة، أبيض البشرة، شعره أسود فاحم وعيناه بنيتان لوزيتان، رحب بنا بلهجته المغربية المشوبة بلكنة شرقية، ودعانا إلى الجلوس، اعتذرت منه قائلا أن سبب دخولي إلى المطعم هو رغبتي في الظفر بالوظيفة المُعلن عنها، طلب مني أن أنتظر قليلا، واختفى خلف المقصف.

انتبهت إلى ببغاء بديع الألوان، موضوع داخل قفص ذهبي فوق رف مجاور للمقصف، قلت لعبدول:

- يا له من ببغاء جميل!

صدمني هذا المخلوق العجيب حين صاح:

- قرد.. قرد!

أتت امرأة ممتلئة جميلة في منتصف عقدها الخامس، بيضاء كمنحوتة إغريقية، شعرها الأسود البراق مرفوع على شكل ذيل حصان، وعيناها بلون العشب، كانت ترتدي جلبابا أزرق، قالت لنا مبتسمة:

- مرحبا، أنا « ثْلايْثمَاس « مالكة المطعم، وهذه ببغائي المشاغبة، الأنثى الشريرة «كوكو»، أتمنى أن تقبلا اعتذاري عما بَدر منها، إنها

معتادة على هذه المشاكسات.

ابتسمت لها، تقدمت نحوها وصافحتها، ثم قلت:

- لا عليك سيدتي، وأنا كذلك معتاد على مثل هذه التصرفات.

عرفتها بنفسي وقدمت لها عبدول، حكيت لها عن وضعي كمُهاجر سري بإيجاز، قبلت توظيفي مبدئيا مقابل أجر شهري قدره ألف وخمسمئة درهم مغربي دون احتساب البقشيش، شكرتها على ثقتها، شرحت لي ظروف العمل بمطعمها وشددت على حضوري في اليوم التالي في تمام الساعة العاشرة صباحا، قبل أن أودعها، قلت لها:

- أعجبني اسم المطعم كثيرا، رغم أنني لم أفهم معناه.

قالت مبتسمة:

- اخترت اسم أنْوال تيمنا به لأنه اسم واحدة من أشهر المعارك التي قادها أسد الريف، الأمير الأمازيغي «عبد الكريم الخطابي» سنة ١٩٢١، وفيها حقق نصرا ساحقا على جيوش الاحتلال الإسباني.

أشارت بفخر إلى صورة لرجل مَهيب يرتدي الملابس التقليدية ويضع على رأسه عمامة، وقالت:

- ها هو بطلنا المقاوم الذي نفتخر به أيّما افتخار نحن أهل الريف.

***

-٣-

عدنـا إلى شـقتنا الصغـيرة، وجدنـا جـورج وميكائيـل يطبخـان طاجـين الدجـاج بالجـزر والزيتـون الأخـضر، غيرنـا ملابسـنا، أدينـا الصـلاة، والتحقنـا بهمـا لنتنـاول عشـاءنا الشـهي، قدمـت المنفضـة الخزفيـة لجـورج، سُرَّ بهـا كثـيرا، مسـح عـلى رأسي وشـكرني، أخبرتـه بأنـي عـثرت عـلى عمـل كنـادل بمطعـم مطـل عـلى البحـر، فـرح مـن أجـلي، قـال عبـدول بحـزن:

- المشـكلة هـي أنـه لا أحـد يقبـل توظيـف رجـل أعـرج مثـلي، ولهـذا أعتقـد أنـني سـألازم البيـت لفـترة طويلـة.

ابتسم ميكائيل وقال له:

- لا تقلق يا أخي، اترك هذه المهمة لي.

بعد هُنيهة، وجّه جورج سؤاله إلى ميكائيل:

- هل من أخبار جديدة عن شقيقتك المفقودة «أنابيل»؟

تنهد ميكائيل ورد عليه:

- للأسف لا أثر لها.. وكأن الأرض قد انشقت وابتلعتها.

سـألته عـن سـبب اختفـاء شـقيقته، حـكى لي أنـه قبـل أربـع سـنوات كانـت أنابيـل ذات الثلاثـة عـشر ربيعـا، في طريـق عودتهـا مـن المدرسـة رفقـة صديقاتهـا، عندمـا اعـترض سـبيلهن رجـال مسـلحون مـن عصابـات «بوكـو حـرام»، وقامـوا بخطفهـن، ومنـذ ذلـك الحـين، لـم يصـل لأهاليهـن أي خـبر عنهـن، ولـم ينـشر التنظيـم المتطـرف أي بيـان أو فيديـو بخصوصهـن، ليبقـى مصيرهـن لغـزا محـيرا، وتُفتـح بـاب الفرضيات المرعبـة، الـتي ترجـح أن هـؤلاء المجرمـين قـد اغتصبوهـن جماعيـا قبـل قتلهـن ودفنهـن في مقـبرة جماعيـة مجهولـة.

عبرت له عن أسفي الشديد، ابتسم بمرارة ثم سألني:

- وأنتما؟ ألن ترويا لي قصتيكما؟

قلت له بإيجاز إنني كنت أتابع دراستي بالثانوية عندما قتل والدي إثر انفجار سيارة مفخخة قرب ثكنة عسكرية قريبة من حينا، في ذلك المساء، كان عائدا من الفندق الذي يعمل به كطباخ وهو يحمل بين يديه كما عودنا قليلا من الأكلات التي طبخها وقدمها للسياح، انفجرت السيارة وتوفي والدي وعابر آخر من السكان، إضافة إلى جنديَيْن.. منذ ذلك الحين، تأزمت أوضاعنا المادية، واضطررت إلى التوقف عن الدراسة قبل نيل شهادة الباكالوريا. قصدت الفندق لأرجو مديره الفرنسي كي يسمح لي بأن أحل محل والدي في العمل، إلا أنه طردني بقسوة بعدما قال لي إنه لا يحتاج إلى شخص عديم الخبرة مثلي.

حل دور عبدول ليروي قصته أو بالأحرى مأساته، قال لميكائيل إنه أصيب بمرض غريب خلال طفولته أورثه عرجا مزمنا، رغم محاولات والديه المستميتة، اليائسة لعلاجه سواء عن طريق الطب، أو عن طريق الأعشاب وزيارة الأولياء الصالحين، ما جعله يضطر إلى مغادرة صفوف المدرسة مبكرا من جراء سخرية الأطفال منه، وذات يوم، اغتيل والده الجندي البسيط في هجوم مسلح على قاعدته.

اغرورقت عينا عبدول بالدموع في أثناء روايته لقصته، ربت جورج على كتفه وقال:

- يبدو أن قدرنا هو الغرق في محيط المآسي، كأننا لم ندفع بعد ثمنا كافيا عقب قرون من المعاناة والعبودية، ليستمر التنكيل بنا من طرف هذه الجماعات الإرهابية، التي تتخذ من الدين ذريعة لتقتل ما تبقى فينا من حياة وأمل.

***

-٤-

بحلـول يـوم الغـد، قصـدت مطعـم أنـوال لأصـل في الموعـد الـذي حددتـه لي السـيدة الطيبـة تلايتْمـاس، في طريقـي، لاحظـت أن مدينـة طنجـة الـتي لا تنـام، لا تُفتـح متاجرهـا إلا في ساعة متأخـرة مـن الصبـاح.

دخلـت، اسـتقبلتني السـيدة تلايتْمـاس بحفـاوة، ودعتـني إلى مشـاركتها وجبـة فطورهـا المكونـة مـن عجّـة البيـض باللحـم المقـدد عـلى الطريقـة المغربيـة، مرفقـا بالشـاي المنعنـع، أفطرنـا عـلى أنغـام الموسـيقى الريفيـة الـتي نالـت استحسـاني إيقاعاتهـا كونهـا تمـزج مـا بـين الإيقاعـين الأمازيغـي والغـربي، كانـت الببغـاء سليطة اللسـان تمضـغ قطعـا صغـيرة مـن ثمـرة جـوز الهنـد، علقـت السـيدة تلايتمـاس:

- إنهـا تعشـق جـوز الهنـد، ولهـذا أطلقـت عليهـا اسـم كوكـو، إذا أردت كسـب ودهـا وتجنـب مضايقاتهـا فمـا عليـك إلا أن تجلـب لهـا بـين الفينـة والأخـرى قطعـا منـه، إنهـا متوافـرة بكـثرة هنـا، ويبيعهـا باعـة متجولـون بثمـن زهيـد.

شـكرتها عـلى لطفهـا ونصيحتهـا، أتى الشـاب المـشرقي الوسـيم الـذي اسـتقبلني أنـا وعبـدول في اليـوم السـابق، وقـف أمامنـا وسـألها بلكنتـه المميـزة:

- «أمـي تلايتْمَـاس»، هـل يمكنـني أن أصطحـب هـذا الشـاب معـي الآن لأسـلمه زي العمـل، وأوضـح لـه بعـض الأمـور؟

أجابته:

- طبعا «نورسي»، أعانكما الله.

أعجبتني مناداته لها بأمي، كما أحببت مناداتها له بنورسي.

قبل أن أذهب معه، التفتت نحوي وقالت:

- اسـمك مامـادو هـو اسـم الرسـول محمـد صـلى الله عليـه وسـلم

بلُغتكـم أليـس كذلـك؟

قلت:

- أجـل سـيدتي، في بلدنـا يطلقـون اسـم مامـادو عـلى الابـن البكـر تيمنـا بنـبي الله العظيـم.

قالت:

-مـن الآن فصاعـدا سـأناديك بمحمـد، كي لا يجـد الزبائـن صعوبـة في نطـق اسـمك، ويمكنـك منـاداتي بــ «أمـي» كنـورس، اعتـبرني والدتـك، جميعكـم أبنـائي.

فكـرت في أنـه منـذ وصـولي إلى أرض المغـرب، تمـت إعـادة تسـميتي مرتـين، لأحظـى باسـمين مختلفـين تمامـا همـا: محمـد وبُـول.

دلفـت مـع نـورس إلى غرفـة ضيقـة وراء المطبـخ، مخصصـة لتغيـير الملابـس، أعطـاني زي العمـل، أسرعـت بارتدائـه، بعدهـا، أخـذني معـه في جولـة لأتعـرف عـلى عمّـال المطبـخ، قـدم لي العـم «عبـد الله» الطبـاخ الـذي يقـترب مـن عقـده السـادس بخطـى حثيثـة، ذكرتـني رؤيتـه بوالـدي، تعرفـت كذلـك عـلى مسـاعده الشـاب «سـالم»، والخالـة «اعويشـة» الـتي تهتـم بتنظيـف الأواني والمطعـم.

سـطع نـور يعمـي الأبصـار بعـد دخـول فتـاة سـاحرة الجمـال إلى المطعـم، صاحـت الببغـاء عاشـقة جـوز الهنـد بابتهـاج:

- شقراء.. شقراء جميلة!

التحقـت بنـا الشـقراء الفاتنـة، سـلمت علينـا، غرقـت في زرقـة بحـر عينيهـا، انتشـلني نـورس بقولـه:

- أقدم لك زميلتنا «علياء».

مـددت لهـا يـدي المرتعشـة، صافحتـني بحـرارة واختفـت داخـل غرفـة تغيـير الملابـس.

ذكرتـني عليـاء -الفتـاة الشـمالية ذات الجمـال الأخـاذ- بمعشـوقتي الأولى في مـالي «سـارة» المنحـدرة مـن عـرب أزواد، ببياضهـا العاجـي وشـعرها

الانسيابي، ذاك الحب الممنوع في أعراف أولئك العرب المتشددين، سارة حبي الأول، ذلك الحب المُستعر الذي أنستني إياه بائعة مخدر المتعة الحسية «فانطا»، المرأة السونينكية، عشيقتي الأولى الجامحة، بعد تجربتي مع فانطا استنتجت أمرا هاما، هو أنه وحده الحب الجسدي قادر على أن يُنسي الرجل الحب الروحي، وعذاباته.

لن أنسى كذلك علاقتي القصيرة، المميزة واللامشروطة مع الساحرة أماديا أو بائعة الأمل كما كان يحلو لها أن تلقب نفسها.

بالرجوع إلى يومي الأول بالمطعم، أذكر أنه لم يرتده العديد من الزبائن، سألت «أمي تلايتماس» عن السبب، فطمأنتني بأن فصليْ الربيع والصيف على الأبواب وفيهما سأرى مدى اكتظاظ المطعم بالسياح الداخليين والأجانب.

كان سير العمل عاديا، إلى أن جاء ذلك الزبون الفظ، بمجرد اقترابي منه لآخذ طلبيته، قال لي بحدة:

- استعمرتم البلد أيها الغربان المشؤومة! وصار عددكم يفوق عددنا بكثير.. وضيقتم الخناق أكثر على شبابنا المعطل، لا أريد أن تخدمني، فلتُناد على النادلة علياء!

تجرعت الإهانة، عدت إلى الداخل، وناديت علياء التي توجهت نحو الزبون العنصري، فطنت إلى أنه زبون دائم للمطعم، في استراحة الغداء، جلست رفقة نورس، ابن مدينة حلب العظيمة، لاحظ استيائي فاستفسرني عما حدث، حكيت له عن إساءة الزبون الفظ لي، سكت قليلا وقال:

- لا تكترث عزيزي لمثل هذه التصرفات الشاذة، أنا لجأت إلى المغرب سنة ٢٠١٢، بعدما حَميَ أُوارُ الحرب ببلدي سوريا، وأؤكد لك أن جل المغاربة يتقبلوننا ويحسنون معاملتنا، أمثال هذا الحقير الذي صادفته اليوم قلة، وهم رضعوا من ثدي العنصرية منذ طفولتهم، هل لك أن تتصور أنهم عنصريون حتى فيما بينهم؟ كم مرة سمعت أحدهم يشتم أصول أبناء بلده المنحدرين من مناطق

مختلفـة، وينعتهـم بنعـوت بشـعة.. لا تأبـه لمثـل هـؤلاء، إنهـم مجـرد مـرضى يُنفسـون عـن عقدهـم الدفينـة.

***

-٥-

أغلـق المطعـم بابـه في منتصـف الليـل، تكفلـت «أمـي تلايْثْمـاس» بتوصيـل علياء والخالـة «اعويشـة» إلى بيتيهمـا كمـا اعتـادت، ودعناهـن، غـادر العـم عبـد الله صحبـة مساعده سـالم، وبقيـت مـع نـورس الـذي اقـترح عـلى القيـام بجولـة قصـيرة في طنجـة الليليـة الملهمـة، النابضـة بالحيـاة.

امتطينـا سـيارة أجـرة، وتوقفنـا بعـد دقائـق بمنطقـة «مالاباطـا» الراقيـة، سـحبني نـورس مـن يـدي إلى داخـل أحـد المقاهـي، جلسـنا، طلـب كوبـين مـن عصـير الأڤـوكادو بالفواكـه الجافـة، تأملـني طويـلا، قبـل أن يقـول:

- عيناك تَشيان بأن في جُعبتك العديد من الحكايات.

عـدتُ إلى الـوراء بفـزع، خلـت أنـه مُسـتبصر أو شيء مـن هـذا القبيـل، سـألته:

- كيف عرفت؟

ضحك وأجاب:

- وظيفـتي هـي قـراءة الوجـوه والتعابـير، والتنقيـب عـن الحكايـات المتواريـة خلـف العيـون، أحيانـا، يُمكنـني إحسـاسي المرهـف المتطـور مـن سَـبر أغـوار بعـض الأشـخاص الذيـن أصادفهـم، أنـا كاتـب وشـاعر، أو بالأحـرى كنـت كذلـك قبـل انـدلاع الحـرب في سـوريا الحبيبـة، تلـك الحـرب الـتي أفقدتـني كل شيء، لكنهـا للأسـف لـم تُفقـدني مقيـاس المشـاعر وحاسـتي السادسـة الأدبيـة. لطالمـا اعتـبرت أن وظيفـة الكاتـب هـي مراقبـة الحيـاة والأحيـاء، والتقـاط أدق التفاصيـل مـن أجـل الكتابـة عنهـا، في الواقـع، أحيانـا أغبـط أبطـالي الورقيـين لأنهـم يَحْيَـون أكـثر مـني، كـوني أسـقط أحلامـي ورغبـاتي واسـتيهاماتي عليهـم في القصـص القصـيرة الـتي أنسُجها حولهـم، بينمـا أظـل أنـا جالسـا أكتـب وسـط أطـلال آمـالي،

لأراقب حياتهم من بعيد.. تلك الحياة التي لم أعشها لأن مُوَزّعة أوراق الحظ في كازينو الدنيا ظالمة.. باختصار الكتابة هي لعنتي الأبدية.

طلبت منه أن يحكي لي قصته، رد على قائلا:

- سأحكي لك قصتي، رغم أنني في كل مرة أرويها تنتابني نفس الأحاسيس المؤلمة، شريطة أن تحكي لي قصتك، وتحدثني أكثر عن عظمة إمبراطورية «الصونغاي»، أقدم إمبراطورية في تاريخ غرب إفريقيا والتي أمست اليوم بلدك مالي.

وافقت، فبدأ بسرد قصته الموجعة:

- كانت حياتنا تسير بشكل طبيعي في شام الياسمين، كنت أتابع دراستي العليا تخصص لغة عربية بجامعة حلب، وأنشر كتاباتي في الصحف السورية وأشارك في أمسيات شعرية وملتقيات ثقافية، كان حلمي الكبير في ذلك الوقت هو إصدار ديوان شعري. كنا نعيش في رخاء بهذه المدينة التاريخية، كونها كانت قبل الحرب عاصمة الاقتصاد السوري، وكل يوم، كنت أضع لَبنة جديدة في قصر أحلامي، ذاك القصر الذي قصفه منجنيق الواقع القاسي.

اندلعت الحرب، فقدت شقيقي «مَجْد» الطالب الحالم والعازف الماهر على آلة العود، والذي كان يصغرني بأربع سنوات، بعدما اعتقل بتهمة انتمائه إلى المعارضة، شقيقي الغالي الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في غياهب المعتقل من شدة التعذيب.

بعد رحيله، رغبت في أن أنضم إلى صفوف المقاومة، لكنني صدقا لم أعرف من سأحارب، كل ما أعرفه أننا جميعا إخوة ولو اختلفت دياناتنا ومذاهبنا وطوائفنا، ولدنا وعشنا على نفس الأرض وتنفسنا الهواء ذاته، لكننا فجأة صرنا نقتتل فيما بيننا. ورغم حيرتي، كنت على وشك الانضمام إلى المقاومة، لكن لم تتركني والدتي لأنني كنت كل ما تبقى لها ولشقيقتي التوأمتين الصغيرتين «شذى» و«غنى»، بعد انفصال والدي عنها قبل سنين، وبعد موت «مجدنا».

تركنـا كل شيء، ولجأنـا إلى المغـرب بعدمـا احـترق الياسـمين، ومعـه احترقـت أحلامـي.

كثـيرا مـا شـبهت الحيـاة بحلبـة مصارعـة شاسـعة، تضربـك بـلا توقـف، دون أن تـترك لـك فرصـة لملمـة جراحـك لتنهـض مـن سـقطتك وتسـتأنف المبـاراة بشـموخ وتحـد، والمفارقـة الكـبرى هـي أنهـا تؤجـل تسـديد الضربـة القاضيـة لـك طويـلا.

في الواقـع، تمنيـت مـرارا أن تـرأف بي الحيـاة المتوحشـة وتُسـدد لي لكمتهـا الرحيمـة، ولكـن الآن، الـشيء الوحيـد الـذي يمنعـني مـن الانبطـاح في حلبـة الحيـاة القاتلـة -بعـد أسرتي- هـو حـبي المُتّقـد لجـارتي وعشـيقتي الراقصـة الغجريـة الرومانيـة الحسـناء «أناسـتازيا»، الـتي تعمـل راقصـة شرقيـة في الكازينـو القريـب مـن هـذا المقهـى.

سرح بنظـره قليـلا، ثـم طلـب مـني أن أحـكي لـه عـني، عـن مـالي، وعـن مآسـيها.. بعدمـا أنهيـت حكـي، قـال بـشرود:

- لا وطن محددا للمأساة!

***

-٦-

حـل يـوم الجمعـة عيـد المؤمنـين، اكتشـفت منـذ قدومـي إلى المغـرب أن المغاربـة يتبعـون طقسـا مقدسـا في هـذا العيـد، إذ مبـاشرة بعـد أدائهـم الصلاة في المساجد، يحرصـون عـلى تنـاول طبـق اليـوم المكـون مـن الكسـكس.

كان العـم عبـد الله ومسـاعده سـالم منهمكـين في تحضـير هـذه الوجبـة الغنيـة بطريقتيهـا: الكسـكس باللحـم والخـضر والكسـكس بالدجـاج والزبيـب، أخـبرت أمـي تلايْتْمـاس بأننـا أيضـا نحـضر الكسـكس بالخـضر في مـالي إلا أننـا نضيـف إليـه القنّبيـط والباذنجـان والزيتـون الأخـضر، اسـتغربت طريقـة إعدادنـا لـه قبـل أن يفـتر ثغرهـا عـن ابتسـامة وتفاجئني بقولهـا:

- أعـط وصفتكـم للعـم عبـد الله ليحـضر لنـا الكسـكس عـلى الطريقـة الماليـة الأسـبوع المقبـل، أرغـب حقـا في تـذوق أكلاتكـم.

كان المطعـم فارغـا قبيـل أذان صـلاة الظهـر، لـذا سـمحت لنـا أنـا ونـورس والعـم عبـد الله بالذهـاب لأداء الصـلاة في «المسـجد الأعظـم»، الـذي يُطلـق عليـه معظـم سـكان طنجـة اسـم: الجامـع الكبـير، هـذه المعلمـة الدينيـة والتاريخيـة، والمنـارة العلميـة الـتي كانـت قبلـة الطلبـة الراغبـين في النهـل مـن بحـر علـوم الديـن، القريبـة مـن مرفـأ طنجـة القديـم ومـن السـوق الداخـلي، والـتي تمتـاز بتصميمهـا الهنـدسي الفريـد ونقوشـها الأندلسـية العريقـة، في الطريـق، قـال لي نـورس:

- قـرأتُ قـول العلامـة الكبـير «عبـد الله كنـون» عـن هـذا المسـجد ذي المعمـار الأصيـل، والـذي كان مقـرّا للحركـة الوطنيـة ضـد الاسـتعمار: «إن موقعـه الموجـود بالقـرب مـن شـاطئ البحـر، يغـري الجميـع بالقـدوم إليـه، حيـث تظهـر الأندلـس قريبـة مـن نافذتـه، ويتجـلى مـن خلالهـا

مصباح المنار الموجود في مدينة طريفة، فيهدي بنوره السفن المارة بقربه، وهي متعة لا توجد في أي مسجد من مساجد الأرض».

وأضاف وهو ويشير بيده إلى الساحل المتوسطي:

- ها هو ذا مضيق جبل طارق الذي يلوح في الأفق، هل تعلم أن المسافة الفاصلة بين أقرب نقطتين على ضفتي المتوسطي لا تتجاوز أربعة عشر كيلومترا؟ هذه المسافة القصيرة هي مسافة حلمك الذي تخال أنه تفصلك عن ضفافه عُقد بحرية لا نهاية لها.

تأملت هذه المفارقة العجيبة، وأحسست بأن حَمْل حلمي القريب البعيد على كتفي قد بدأ ينهكني، وأنا ما زلت تائها بين ضفافه التي يبدو لي يوما بعد يوم أنها تبتعد أكثر فأكثر.

دخلنا إلى المسجد العابق بالتاريخ، وأسندنا ظهورنا إلى سواريه الضخمة، بانتظار بدء الصلاة.

استمعنا إلى خطبة الإمام الطاعن في السن حول التعايش السلمي والتكاتف الأخوي، تلك الخطبة التي اختتمها بالآيات الكريمة:

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون. يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم. يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير».

بعد الصلاة، عدنا إلى المطعم الذي بدأ الزبائن بالتوافد عليه، من بين مرتاديه الذين ظلوا في ذاكرتي تلك السيدة التي قدمت رفقة شريك حياتها وطفليهما، بعد جلبي لطلبهم، سألتني عن البلد الذي أنحدر منه، وحينما أخبرتها بأنني قدمت من دولة مالي، ابتسمت

وقالـت:

- ثمـة عـدة روابـط تاريخيـة وروحيـة بـين مـالي والمغـرب، قبـل قـرون، اسـتقرت «زينــب» حفيــدة «يوســف بــن تاشــفين» ثــاني ملــوك دولــة المرابطـين الـذي وحـد المغـرب وضـم الأندلـس تحـت مُلكـه بتمبكتـو، والـتي وقعـت في غرامهـا، وأَنْشَـأَتْ إحـدى أكـبر المكتبـات في غـرب إفريقيـا بهـذه المدينـة ذات الثلاثمئـة وثلاثـة وثلاثـين وليـا.

رددت عليها:

- في مدينـتي تمبكتـو، الـكل يـردد أن أمـير المسـلمين يوسـف بـن تاشـفين وأحفـاده مـن بـين عظمـاء الإسـلام، الذيـن يرجـع إليهـم الفضـل في نـشر هـذا الديـن السـمح والعلـم والصوفيـة في مـالي.

ودعتهـا وأنـا أفكـر في أن نـورس أصـاب بقولـه إن أشـباه الزبـون الكريـه، قلة .

***

-٧-

في استراحة الغداء، اجتمعنا في المطبخ لنتناول الكسكس، كانت الأم تلايْتْماس تأكل في صمت وشرود، لاحظت حزنا عتيقا في عينيها، قلت في نفسي إن نورس قد نقل لي عدوى البحث عن قصص الحيوات في أعين الناس.

خفت الحركة بالمطعم بعدما أسدل المساء سُجُوفه المزخرفة بالنجوم والأجرام السماوية، مررت قرب أمي تلايْتْماسْ، ابتسمت لي، فوجهت لها سؤالي:

- هل لي أن أعرف معنى اسمك الرنان؟

أجابت:

- تلايْتْماس بالأمازيغية يعني: ينبوع الماء الصافي.

قلت مبتسما:

- أنت كذلك بالفعل.

أطل نورس من خلف المقصف وقال وهو ويحرك يديه كما ولو كان يلقي قصيدة:

- الغدير تلاَيْتْمَاس، قلبها من ماس.

رددت الببغاء الحمقاء بطريقة تشبه تلك التي تحدث بها نورس:

- ماس.. ماس.

ضحكنا، أشارت إلى لأجلس بقربها، امتثلت لرغبتها وتفاجأت بسؤالها:

- هل تريد أن تعرف سبب مناداتي لك بمحمد؟

قلت مُخمنًا:

- لأنكم تجدون صعوبة في نطق اسمي بالطريقة المالية.

هزت رأسها نافية، تنهدت بعمق وقالت:

- بل لأنه اسم ابني بالتبني، الذي رحل عن عالمنا منذ وقت بعيد.

قلت لها:

- كلي آذان صاغية لسماع تفاصيل قصتك.

ربتت على كتفي، وبدأت تحكي:

- قبل ثلاثين عاما، اقترنت بابن عمي «منير» فور عودته من الخارج، بعد قصة حب ملتهبة بدأت فصولها منذ الطفولة.

افتتحنا معا هذا المطعم الذي منحني شرف اختيار اسمه، وعشنا بسعادة.. كان حلمنا هو إنجاب عدة أطفال، لكن مرت الشهور دون أن أتمكن من تحقيق هذا الحلم بسبب رحمي البُور.

اقترحت على شريك عمري الارتباط بسيدة مطلقة من بلدتنا، كان قد سبق لها إنجاب طفلين، قبلتُ بالتضحية وبنزف مشاعري من أجله، إلا أنه رفض رفضا قاطعا، ووعدني بأنه لن يتزوج على أبدا، ولهذا فهو مستعد للتخلي عن حلمه في الإنجاب كي لا يخسرني.

في منتصف التسعينات، لجأ إلى طنجة العديد من مواطني البوسنة والهرسك، هربا من حرب التطهير العرقي للمسلمين التي كان هدفها هو محو الإسلام ومعتنقيه من هاتين الدولتين البلقانيتين، هذه الحرب التي دامت لثلاث سنوات، وخلفت مئات الآلاف من القتلى، لذا صُنفت كأبشع جريمة ضد الإنسانية في القرن العشرين، مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية.

من بين اللاجئين، كان هناك أربعة أيتام صغار، تم إيداعهم في ميتم بانتظار أن يعثروا على أسر تكلفهم، من جملتهم كان ابني الأشقر البريء البالغ من العمر ست سنوات، قد نجا بأعجوبة من مذبحة «سربرنيتشا» التي فقد فيها أسرته، إلا أنه كان يحمل آثار جراح جسدية ونفسية عميقة، علاوة على مخلفات المجاعة.

قمت أنا وزوجي بتبنيه، فرحنا كثيرا لأن الدنيا قد أهدتنا أخيرا

طفـلا، بعـد سـنوات عجـاف مـن الانتظـار.

لكـن صحـة صغيرنـا محمـد كانـت تتداعـى يومـا بعـد آخـر، رغـم محاولاتنـا علاجـه، وذات صبـاح ممطـر، دخلـت إلى غرفتـه لأوقظـه، وسـقطت أرضـا مـن فـرط الصدمـة، كان قـد رحـل إلى العالـم الآخـر في أثنـاء نومـه، كان يتخـذ وضعيـة الجنـين مـا جعلـه يبـدو كأنـه يضـع رأسـه فـوق ركبـة أمـه.

بكـت بحرقـة، قبـل أن تمسـح دموعهـا، وتأخـذ جوالهـا، لتريـني صورهـا مـع زوجهـا وابنهـا الراحلـين قائلـة:

- لـم تتبـق لي إلا هـذه الصـور الـتي التقطـت لحظـات سـعادتي المنفلتـة، والـتي نسـختها في هاتفـي لأحملهـا معـي أينمـا كنـت.

واسـيتها، أعطيتهـا كـوب مـاء، أمسـكته وهـي ترتجـف، أخـذت منـه رشـفة وأكملـت:

- بعـد بضـع سـنوات عـلى رحيـل ابـني محمـد، أصيـب زوجـي وحبيـبي بمـرض عضـال، كان شـفاؤه ميؤوسـا منـه، رافقتـه طـوال فـترة مرضـه، في حـين كان أشـقاؤه وشـقيقاته يأتـون لزيارتـه وهـم يتصرفـون كمـا لـو أنهـم ينتظـرون موتـه بفـارغ الصـبر مـن أجـل الحصـول عـلى حقهـم مـن المـيراث، لاحـظ منـير ذلـك لـذا أصر عـلى أن يكتـب لي جميـع أملاكـه، رفضـت في البدايـة، لكنـه قـال لي جملـة رسـخت في ذهـني:

- «كنـت أظـن لسـنوات أن لي أشـقاء محبـين، لكنهـم خذلـوني، وأحرقـوا الحبـل الـسري الـذي كان يربطنـا، ولهـذا أريـد أن أضمـن مسـتقبلك، أخـشى مـا أخشـاه هـو أن يطـردوك مـن بيتنـا بعـد مـوتي، ويسـتولوا عـلى المطعـم وكل ممتلكاتنـا، أنـا الآن شـجرة واهنـة، بـلا جـذور، وأنـت عائلـتي الوحيـدة».

تـوفي بعـد صراعـه مـع المـرض الـذي هزمـه بعـد جـولات طويلـة، بعدهـا، بـدأ أشـقاؤه -أبنـاء عمـي- بالاقتتـال مـع أشـقائي، كان كل واحـد منهـم يرغـب في الظفـر بقطعـة مـن الكعكـة المسـمومة المسـماة بالـثروة

التي أحملها بين يدي، لم أرَ داعيا لهذه الحرب العائلية، بما أنني أعلم مسبقا أنهم سيرثون كل شيء بمجرد وفاتي لأنه ليس لدي أبناء، لكن أحد أشقائي صرح لي ذاتَ زلة لسان بأنهم يخشون أن أتبنى طفلا يتيما وأهب له ثروتي بأكملها.

الأنكى من هذا كله أنهم شرعوا في التحكم بي، ورغبوا في تزويجي بشقيق زوجي كي تظل الثروة محصورة في نطاق العائلة، رفضت بشدة الارتباط برجل آخر بعد زوجي وقررت الوفاء لذكراه، كما بقي وفيا لي إلى آخر نفس.. هل تتصور أنهم يعارضون تسييري للمطعم متذرعين بأنني أرملة وهذا الأمر لا يتوافق مع تقاليدنا البالية، التي تحكم على المرأة الأرملة أو المطلقة بالسجن المؤبد داخل منزل أهلها إذا ما تجرأت على رفض الزواج مجددا.

سألتها:

- لماذا لم تفكري في تبني طفل متخلى عنه بعد رحيل ابنك وزوجك؟

قالت بمرارة:

- منذ سنين وأنا أحاول.. أتقدم دوما بطلب كفالة يتيم أو يتيمة، لكن مسطرة كفالة امرأة وحيدة مثلي ليتيم جد معقدة.

انتهى دوامنا، تمنينا ليلة سعيدة لأمنا تلايْتماس، سرت قليلا مع نورس، إلى أن عثرنا على سيارة أجرة قبل سائقها بإقلالنا، امتطيناها، بعد لحظات من الصمت، سألته:

- عزيزي نورس، هل لك أن تخبرني عن هوية ذلك الرجل الغامض الذي يظهر في إحدى الصور المعلقة على حائط المطعم، وهو يسند رأسه إلى لوحة خلفية، وكأنما يرغب في العبور إليها ليصير جزءا منها؟

أجابني:

- إنه الكاتب المغربي العالمي الراحل «محمد شكري»، أخبرتني

تلايْتْمـاَسْ بأنهـا اختـارت هـذه الصـورة بالـذات لأنهـا أظهـرت الطفـل المختـبئ بداخـل شـكري، الكاتـب الأسـطوري الـذي لُقـب بالشـحرور الأبيـض، كان شـكري ريفـي الهويـة طنجـي الهـوى رجـلا عصاميـا ومكافحا، تحـدى ظـروف طفولتـه القاسـية الـتي عـانى فيهـا مـن الفاقـة والأميـة والمجاعـة إبـان الحـرب العالميـة الثانيـة.. تحـدى الجميـع ليحقـق حلمـه في الدراسـة والتعلـم بعـد تجـاوزه العشريـن، ليكتـب بعدهـا سـيرته الذاتيـة الثلاثيـة الشـهيرة المثـيرة للجـدل، والـتي كتـب فيهـا عـن العوالـم السـفلية لطنجـة مَطْهـر الفـردوس والجحيـم حسـب قولـه.

تدخل سائق سيارة الأجرة قائلا:

- نديـن بالكثـير لهـذا العمـلاق الـذي كتـب عـن الفقـراء والمهمشـين والمنسـيين، وعـن طنجـة كمـا لـم يكتـب عنهـا أحـد مـن قبـل، كنـت أصادفـه في مقهـى الحافـة بعدمـا حقـق شـهرة عالميـة، ورغـم ذلـك كان متواضعـا وشـعبيا، يبتسـم ويتحـدث مـع الجميـع.. عكـس بعـض الكُتـاب الآخريـن المصابـين بـداء التعـالي.

قبل أن نفترق أنا ونورس، قال لي:

- سـأقرأ عـلى مسـامعك أسـطرا شـعرية مـن قصيـدة «طنجيـس» الـتي كتـب فيهـا شـكري عـن هـذه المدينـة الـتي قـال إنـه رأى في عينيهـا كل نـزوات العقـل:

– «يحكون عن كنوزك القديمة:

أن الغزاة هَربوا أُوارها.

يحكون أن حلمك البعيد،

يجيء خجلانا ويمضي رائعا.

يُحاور النفي الذي يحاصر المدى،

هوية التيه الذي يبدأ حين ينتهي،

هوية السقوط،

هوية العزاء في الجرح الذي لا يلتئم،

هوية الغياب والقمامة».

***

-٨-

عثر عبدول أخيرا على عمل، بعد أن وافق أحد معارف ميكائيل على تشغيله كحارس موقف للسيارات قريب من مسكننا المؤقت بحي فال فلوري، كان عمل عبدول الجديد مناسبا لوضعه الصحي، إذ لم يكن يتطلب منه إلا مساعدة السائقين في ركن سياراتهم والجلوس لحراستها، كنا في منتصف شهر أبريل عندما عرض علينا جورج الخروج للاحتفال بوظيفة أخينا الأحمق. كان يوم الأحد الذي يصادف عطلتنا الأسبوعية المستحقة أنا وجورج.

توجهنا نحو الشاطئ، سرنا فوق رماله الدافئة، فجأة جلس عبدول ودفن قدميه تحت الرمال، وقال:

- قيل لي إن هذه الرمال لها قدرة سحرية عجيبة على شفاء المفاصل، ربما أشفى أخيرا من لعنة العرج!

فغرنا فاهيْنا أنا وجورج ثم ضحكنا من حمق وسذاجة عبدول، الذي لم يأبه لنا، وظل رابضا في مكانه وهو يغني أغنية من الفلكلور البمباري.

بعد جهد جهيد، اقتنع عبدول بالتحرك من الرمال التي التصقت به، ساعدناه على النهوض ونفض ملابسه لنكمل جولتنا.

غادرنا الشاطئ، توقفنا أمام كشك يبيع بطاقات بريدية عليها صور معالم تاريخية مغربية، ابتعت أربعا منها لأرسلها إلى أمي وشقيقاتي الثلاث.

جلسنا في مقهى صغير متخصص في العصائر، وارتشفنا بلذة كؤوسا من عصير الشوفان، تأملنا الغروب، بدا لنا كما لو كانت الشمس تذوب في أحضان البحر الذي يعانقها بشغف عميق.

بمجرد خروجنا من المقهى، سمعنا طفلا يصيح:

- انظروا إلى هذه الفحْمات المحترقة التي تمشي على قدمين!

التفتنا بذهول لنعرف هوية شاتمنا، وجدنا مجموعة من الأطفال المتشردين الذين لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، كانوا يرتدون أسمالا بالية، أغلبهم كانوا يغطون أنوفهم بخرق مهترئة، يستعملونها لاستنشاق دهان تلميع الأحذية، ذي الرائحة النفاذة المخدرة، وجهوا إلينا إشارات بذيئة بأصابعهم القذرة، قبل أن يلاحقونا وهم يصفقون ويرددون بإيقاع سريع:

- إيدز.. إيبولا.. إيدز.. إيبولا.. إيدز.. إيبولا!

انتفخت أوداج عبدول من فرط الغضب، استدار نحوهم وقال لنا:

- اتركوني ألوي أعناقهم!

أمسكناه بصعوبة بالغة، هدأه جورج قائلا:

- إنهم مجرد أطفال مخدرين وبائسين، لا تلق بالا لهم.

واصل الأطفال مطاردتهم المحمومة لنا، المرفوقة بأنشودتهم الشريرة، نفد صبر جورج وباغتنا حين التفت وصاح بهم وهو يقوم بحركات مخيفة:

- هيا تبخروا من أمامي قبل أن أنقض عليكم وألتهمكم!

ارتسم الرعب في عيون الأطفال المحمرة، ثم ركضوا ليختفوا بسرعة الضوء.

قهقهنا طويلا، واستأنفنا تسكعنا.

توقف جورج فجأة في حديقة جانبية، والتقط جروا بنّيا، مسح على رأسه بحنو، وقال لنا:

- إنه جرو تائه وخائف، سنأخذه معنا إلى البيت لنعتني به، فعلى الأقل، الكلاب تحبنا وتتقبلنا كيفما كان شكلنا.

***

-٩-

لـم يسـبق أن تخيلـت طـوال حيـاتي إمكانيـة خـوضي لمغامـرة مثـيرة وخطـيرة في الآن ذاتـه، إلى أن دعـاني نـورس لمرافقتـه في فاتـح مايـو إلى كازينـو طنجـة، لنسـتمتع بوقتنـا ونسـهر لحضـور عـرض حبيبتـه الراقصـة أناسـتازيا.

اسـتعرت بذلـة جـورج ليكـون مظهـري لائقـا بـذاك المـكان الفخـم، الـذي لـم أطـأ مثلـه مـن قبـل، التقيـت بنـورس الـذي كان متأنقـا للغايـة، بوسـط المدينـة، أقلتنـا سـيارة أجـرة إلى مرتـع الأحـلام والأوهـام.

صافـح نـورس رجـل أمـن خـاص، بـدا لي أنهمـا يعرفـان بعضهمـا جيـدا، تفحـص الرجـل الضخـم وجهـي وهندامـي، وسـمح لنـا بالدخـول.

قبـل أن نتوجـه إلى المطعـم الـذي تقـدم فيـه الغجريـة أناسـتازيا عرضهـا الراقـص، أوقـف نـورس المصعـد الزجاجـي الـذي أوصلنـا إلى الطابـق الثـاني المخصـص للقمـار، كانـت طـاولات البـلاك جـاك والروليـت غاصـة بمدمـني الوهـم، الذيـن يدخنـون السـيجار الرفيـع ويتلـذذون بالكافيـار وهـم يرتشـفون مـن كـؤوس المُـدام، لفتـني أن هـذه الطـاولات الـتي تمـارس لعبـة الإغـواء عـلى المقامريـن لا تُـدار إلا مـن قبـل شـابات حسـناوات، يظهـر جليـا مـن ملامحهـن أنهـن مـن أصـول أوروبيـة.

لـم أرَ فخامـة وترفـا مماثلـين طيلـة حيـاتي، تذكـرت مثلنـا البمبـاري القائـل:

- «الرذيلة لا تكمن في الغنى وإنما في البذخ».

لـم أسـتوعب تلـك التناقضـات الصارخـة بـين الفقـر والغـنى، والحكمـة والجنـون، والفضيلـة والرذيلـة بطنجـة، قلـت ملاحظـتي هـذه لنـورس فأجابـني:

- طنجة هي مدينة التناقضات بامتياز.

صعدنا إلى الطابق الثالث الذي يضم المطعم المطل على مسبح الكازينو، كان ممتلئا عن آخره برجال من جنسيات مختلفة، تظهر عليهم سمات الثراء الفاحش، انتبهت إلى أحدهم، كان ذا ملامح هندية أو باكستانية، سألت نورس باستغراب:

- أهناك مواطنون هنود أو باكستانيون مقيمون بطنجة؟

رد قائلا:

- كانت طنجة منطقة دولية في عهد الحماية، وظلت كذلك بعد الاستقلال، يمكنك أن تلتقي في أزقتها بأناس قدموا من شتى أصقاع العالم، واستقروا بأرضها الساحرة.

جلسنا في الطاولة التي حجزتها لنا مسبقا عشيقة نورس، وقدمت لنا نادلة ممشوقة القوام أكلات شهية.

بعد لحظات، اعتلت أناستازيا المنصة المخصصة للعرض، بعدما دخلت وهي تتبختر كأميرة رومانية على أنغام الموسيقى الشرقية، كانت فاتنة بشعرها الأحمر المموج، بعينيها الزرقاوين وببذلة رقصها الحمراء القانية، التي تظهر أكثر مما تخفي، وبخلاخلها الذهبية، أغمضت عينيها وشرعت في التمايل كما تتمايل الأفعى على إيقاعات الناي، كانت تقوم بحركات مثيرة ببطنها المسطح، وكان جسدها يهتز بأكمله كورقة في مهب الريح، تعالت الموسيقى، انتفضت أناستازيا كممسوسة تبحث عن خلاصها في طقس طرد الأرواح، قبل أن تسقط بطريقة مسرحية فوق أرضية المنصة، على وقع النغمة الأخيرة.

كدت أصاب بالصَمم من جراء التصفيق الحار المتواصل، وهتافات الرجال الذين استسلموا لغواية أناستازيا، صعد العديد منهم إلى المنصة بسرعة جنونية، وبدأوا في نثر حفنات تعد فلا تحصى من المال على مفاتن جسدها، حتى كادوا يدفنونها تحت الأوراق المالية، بدا الانزعاج واضحا على نورس بعدما اقترب رجل ضخم الجثة، حليق الرأس من أناستازيا، أمسكها ورفعها بين يديه ثم قبّلها، اندفع نحوه نورس بغضب وصرخ في وجهه:

- لا تلمسها أيها المنحرف، إنها حبيبتي أنا!

خيم جو كثيف من الصمت بعد أن أنزل الرجل الأصلع أناستازيا من بين يديه، قبل أن يخرج مسدسه اللامع بحركة هوليوودية، ويصوبه نحو رأس نورس قائلا:

- من تحسب نفسك لتعترض طريقي أيها العربي المخنث؟ اغرب عن وجهي وإلا فجرت رأسك! من الآن فصاعدا، هذه الراقصة ملكي، أنا إمبراطور هذا المكان.

ما أن أكمل جملته حتى اقتحم رجال الأمن الخاص المطعم، ليسحبونا خارجه أنا ونورس، ويلقونا على قارعة الحلم، أو بالأحرى الوهم.

بكى نورس بلا توقف، جراء شعوره بالمهانة، حاولت تهدئته، في طريق عودتنا، قال بانكسار:

- نجح تاجر السموم البيضاء -الذي يعتقد أنه بوسعه اشتراء العالم بأسره بأمواله القذرة – في بعثرة كرامتي، بعدما كنت بالأمس القريب، رجلا شامخا، أبيا.

***

-١٠-

لـم يـأت نـورس إلى المطعـم في صبيحـة اليـوم الـذي تـلا حـادث الكازينـو، قلقَـتْ عليـه أمـي تلايْتْمـاسْ كثـيرا، طمأنتهـا بقـولي إنـه قـد يكـون مريضـا، اتصلنـا بـه عـدة مـرات لكـن هاتفـه أصيـب بخـرس فجـائي.

في الصبـاح المـوالي، جـاء إلى أنـوال، اعتـذر لأمنـا تلايْتمـاسْ، كانـت حجـة غيابـه هـي تعرضـه لوعكـة صحيـة مفاجئـة، قبلـت عـذره، فدخـل إلى غرفـة تغيـير الملابـس وهـو شـارد، التحقـت بـه لأسـأله عـن السـبب الحقيقـي الكامـن وراء غيابـه، حـكى لي أنـه قـضى صبـاح اليـوم المـاضي عـلى عتبـة بيـت أناسـتازيا، الـتي لـم تعـد إلى شـقتها إلا بعـد الظهـر.. فطـن إلى أنهـا قـد قضـت الليلـة مـع إمبراطورهـا الجديـد.

وجهـت إليـه نظـرات قاسـية، ثـم دعتـه إلى الدخـول، وأحـس بخنجـر مسـموم يخـترق قلبـه لـدى سـماعه قولهـا:

- لقـد انتهـى كل شيء بيننـا، لأنـني لـن أسـمح لـك بالتحكـم فيّ، إذا كنـت رجـلا شرقيـا غيـورا، أنصحـك بتوفـير غيرتـك المرضيّـة هـذه مـن أجـل اسـتعراضها أمـام الفتيـات العربيـات، لأنهـا لـن تجـدي نفعـا مـع امـرأة غجريـة أوروبيـة حـرة مثـلي، لأنـني أفعـل مـا يحلـو لي دومـا رغمـا عـن الجميـع، ورغمـا عـن الحيـاة، لا تهمـني الوسـيلة بقـدر مـا تهمـني الغايـة، وغايـتي هـي تحقيـق حلمـي في الهجـرة إلى أمريـكا، لا الارتبـاط برجـل مثلـك لـن يورثـني إلا شـقاء أبديـا.

فقد عتاده اللغوي بعدما أضافت:

- سـأعترف لـك بـسر أخفيتـه عنـك لمـدة طويلـة، وقـد آن أوان إخراجـي لـه مـن علبـة أسراري، في الحقيقـة، لـم أحببـك طـوال علاقتنـا الـتي امتـدت لمـا يناهـز الثـلاث سـنوات، الغجريـات مثيـلاتي لا يقعـن في الغـرام أبـدا، لأن المهمـة المنوطـة بهـن منـذ الأزل هـي الإيقـاع بالرجـال

في شباكهن، وسرقة قلوبهم، ببساطة اخترتك لأن وسامتك الشرقية أثارتني، وجعلتني أرغب في الاقتراب من تلك الهالة الشبقية التي تلف العرب، كل ما كان بيننا، مجرد علاقة جسدية خالصة لا مكان للحب الغبي فيها، ليس ذنبي أنك أخطأت وأحببتني، لأنه ما كان عليك أن تهوى امرأة تربت مذ كانت صغيرة على عدم التعلق بمكان محدد أو بشخص معين.

أنهى سرده، عانقته مواسيا، تنهد بحزن وقال:

- اكتشفت أن حبي كان بالنسبة إليها مجرد قاعة ترانزيت، استراحت فيها قليلا قبل أن تستأنف رحلتها وتتركني ملتصقا بكرسي الأماني، ممسكا بين يدي بقايا ذكريات محترقة، وأحلام مُرَمَّدَة.

بعد أسبوع على هجر الساحرة الغجرية لنورس، علمتُ منه أنها اختفت كما لو أنها لم تكن موجودة يوما.. سأل عنها صاحبة المبنى الذي كانت تقطن به، قالت له إنها تركت لها مفتاح الشقة مع الحارس وذهبت دون أن تودعها، اتصل بزميلتها في الكازينو، الراقصة الأوكرانية «أولغا»، وسقطت سلة أحلامه من يديه إثر إخبارها له بأن أناستازيا قد توقفت عن العمل وتوجهت إلى القارة الأمريكية، بعد أن جمعت المبلغ الكافي الذي سيُخول لها افتتاح مدرسة صغيرة لتعليم الرقص الشرقي.

أدرك نورس أن أناستازيا تغذت على أوهامه طيلة سنين، وأنها مارست عليه لعبة الخداع والتوهيم، حين وعدته بأنها ستعتزل الرقص ليتزوجا ويذهبا معا إلى أمريكا ثم يجهزا الأوراق اللازمة لتتمكن والدته وشقيقتاه من الالتحاق بهما، بعد أن استعصى عليهم اللجوء إلى ألمانيا.

قال لي نورس:

- الحب لم يُخلق لي، والحلم كذلك.. لذا، سأكتب عنها لعلي أنجح في دفنها بين سطور كتاباتي، وأتخلص من وهم حبها الفتاك وأحرق طيفها، كما أحرقت حبنا ونثرت رماده في محيط المنسي،

ومضت بعدما أهدتني قروحا استوطنت أوردتي.

اختفت الغجرية سارقة القلوب والأحلام، وباختفائها، توقف نورس عن الحلم وأقلع عن الوهم.

***

-١١-

مـرت أيـام عـلى رحيـل أناسـتازيا، خلالهـا تدهـورت حالـة نـورس النفسـية والصحيـة، شـحب لونـه وذوت عينـاه، سـألته عمـا أصابـه، فأجابـني:

- لا داعـي لأن تشـغل بالـك بي، إنهـا فقـط أعـراض انسـحاب الحـب مـن القلـب.

صـار يخلـط بـين طلبـات الزبائـن، ويـشرد كثـيرا كلمـا زاره شـيطان الشـعر، قبـل أن يركـض فجـأة ليـدون خواطـره في دفـتره، في كل مـرة كان يفعـل ذلـك، كانـت الببغـاء الشريـرة تصيـح:

- مجنون.. مجنون!

ذات ليلة حارة أعارني دفتره قائلا:

- أسـلمه لـك لتقـرأ خواطـري وأشـعاري الرهينـة في دفـتري، المعتقـل الـسري لأفـكاري، لكـن أرجـوك أن تقلـب صفحاتـه بحـذر شـديد كي لا تلـوث يديـك بـدم قلـب اللاجـئ الموجـوع.

أخـذت دفـتر «وجـع اللاجـئ» إلى البيـت، وشرعـت في تقليـب صفحاتـه بحـرص كمـا أوصـاني نـورس، كان الدفـتر مُقسـما إلى قسـمين، الأول دَوّن بـه أشـعار وأقـوال الأدبـاء العظمـاء، والثـاني كان مخصصـا لخواطـره وأشـعاره.

في القسـم الأول، قـرأت أشـعارا واقتباسـات مذهلـة، كتـب نـورس عـلى هامشـها ملاحظـة تقـول:

– «إن هــذه الأشــعار تبــدو كتابــات اســتباقية، كأن هــؤلاء الشــعراء الأفــذاذ قــد وجــدوا منفــذا ســحريا إلى وقتنــا الحــالي، واطلعــوا عــلى مآســيه وحروبــه في أثنــاء نظمهــم لهــا».

راقتني تلك القصائد الصالحة لكل زمان ومكان، لذا نسختها:

- «تقاذفتني بحار لا ضفاف لها..
وطاردتني شياطين وأشباح..
ما للعروبة تبدو مثل أرملة؟
أليس في كتب التاريخ أفراح؟
والشعر ماذا سيبقى من أصالته..
إذا تولاه نصاب ومداح؟
وكيف نكتب والأقفال في فمنا؟
وكل ثانية يأتيك سفاح؟»

القصيدة الدمشقية / نزار قباني

...

- « ستفتش عنها يا ولدي
في كل مكان..
وستسأل عنها موج البحر..
وتسأل فيروز الشطآن..
وتجوب بحارا وبحارا..
وتفيض دموعك أنهارا..
وسيكبر حزنك حتى يصبح أشجارا..»

قارئة الفنجان/ نزار قباني

...

- «هذا أنا..
عمري ورق..
حلمي ورق..
طفل صغير في جحيم الموج..
حاصره الغرق..

ضوء طريد في عيون الأفق..
يطويه الشفق..
نجم أضاء الكون يوما واحترق..
لا تسألي العين الحزينة
كيف أدمتها المُقل؟
لا تسألي النجم البعيد
بأي سر قد أفل؟»

لو أننا لم نفترق/ فاروق جويدة

...

- «ولو خُيرت في وطن
لقلتُ هواك أوطاني..
ولو أنساك يا عمري
حنايا القلب تنساني».
(في عينيك عنواني / فاروق جويدة)

...

- «دمشق.. انتظرناك كي تخرجي منك..
كي نلتقي مرة خارج المعجزات..
انتظرناك.. والوقت نام على الوقت..
والحب جاء.. فجئنا إلى الحرب..
دمشق الندى والدماء..
دمشق النداء».

طريق دمشق/ محمود درويش

...

- «نحن أحياء وباقون.. وللحلم بقية».

محمود درويش

...

في القسم الذي خصصه نورس لخواطره وأشعاره، قرأت:

- «ثمـة حـزن يحتجزنـا في دهالـيزه المظلمـة، محطمـا الرقـم القيـاسي للاعتقـال الاحتياطـي، حـزن يمـارس علينـا شـتى صنـوف التعذيـب بسـادية مطلقـة..

ثمـة حـزن يجتاحنـا كالإعصـار، ويدمـر كل مـا تبقـى فينـا، مثلمـا تدمـر جيـوش الاحتـلال آثـار الحضـارات القديمـة».

...

- «الحلم..

الحلم استحال كابوسا..

يسفك دم استيهاماتي..

لذا أقلعت عن النوم..

الوهم..

الوهم صار حقيقة..

وأنا بين الوهم والحقيقة..

أتمايل فوق أرجوحة من ألم».

...

آخـر مـا خطـه نـورس في دفـتره كان قصيـدة «كازينـو المصائـر»، الـتي كان واضحـا أنـه اسـتوحاها مـن ليلـة إعـدام حلمـه:

- «الحياة راقصة غجرية..

تمارس لعبة الإغراء

في كازينو المصائر..

وتسلب مفاتنها عقول الضعفاء..
تتلوى أمامهم كأفعى مغوية..
وتبتسم في وجوههم ابتسامات ماكرة..
الحياة راقصة غجرية..
ترقص فوق قلوب عاشقيها معصوبي الأعين،
وتحفر في أوردتهم تعاويذها السحرية
ليزدادوا تعلقا بها.. وبوَهم حبها..
وينذروا أعمارهم للاستمتاع بها
بعد طول اشتهاء..
لكنهم لا يدركون أن محبوبتهم الراقصة
تتغذى على أوهامهم وأحلامهم..
وأنها تتحين الفرص لتقترب منهم
قبل أن تدس يدها الناعمة بخفة
في جيوبهم المنتفخة أملا..
لتسرق منهم آمالهم الزائفة
وتبدد أحلامهم في الهواء..
وهي تضحك ضحكة مدوية
وتسخر من غباء عاشقيها الذين أضاعوا أعمارهم
متعلقين بوهم الظفر بغجرية حسناء..
الحياة راقصة غجرية..
تسرق أحلام ضحايا إغوائها
ثم تختفي..
تاركة صدى رنين خلاخلها الذهبية

يتردد في الفضاء».

***

-١٢-

بإطلالة هلال رمضان، حصلنا على إجازتنا السنوية، في أحد الأيام، توجهت رفقة نورس إلى مغارة «هرقل» ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي.

دخلنا إلى هذه المغارة الأسطورية، سرنا بين سراديبها التي تتماهى مع متاهة حجرية لا نهاية لها، أحببت جوها الغامض، الآسر، الذي تضفي عليه الفوانيس التي تنير عتمة هذه السراديب التحت-أرضية شاعرية لا تضاهى.

وقفنا أمام الفجوة المطلة على النقطة التي تمتزج فيها مياه هذين البحرين المختلفين، هذا التجويف الصخري المرتفع الذي تنبعث منه أصوات تلاطم الأمواج.

قال لي نورس، الذي كان يعلم أنني أهوى جمع الأساطير والحكايات:

- نُسجت العديد من الأساطير حول هذه المغارة العجيبة التي تم تعميدها كأكبر مغارات إفريقيا، لكن الأسطورة التي يُجمع عليها معظم سكان المغرب هي تلك التي تحكي أن هرقل العملاق الجبار، تم سجنه من طرف آلهة الإغريق الناقمة عليه داخل هذه المغارة، وذات يوم، لم يعد قادرا على التحمل، فغضب غضبا شديدا جعله يضرب هذا الحائط الماثل أمامنا، ليكسر أصفاده المتينة، ومن فرط قوة ضربته، أحدث هذا التجويف الصخري الذي يشبه إلى حد بعيد خريطة قارة إفريقيا، وتسبب في انفصال قارتي إفريقيا وأوروبا، لتختلط مياه البحرين العظيمين.

قُبيل أذان المغرب، دعوت نورس إلى بيتنا ليتناول معنا الفطور ويتعرف أخيرا على أخويَّ جورج وعبدول، وصلنا إلى البيت، وجدناهما يضعان اللمسات الأخيرة على مائدة الإفطار، رحبا بشدة بنورس

صديقي الشاعر الذي حكيت لهما الكثير عنه.

كان جورج قد قرر أن يصوم شهر رمضان بأكمله معنا، الشيء الذي لم يفاجئ نورس، الذي أخبرنا أن العديد من مسيحي سوريا يحرصون على صيام هذا الشهر الفضيل مشاركة منهم لإخوتهم المسلمين.

كان الجو حارا، لكنني رغم ذلك، لم أجد مشقة في الصيام، كون طقس المغرب أقل قسوة في الصيف من طقس بلدي، المصنف كأحد أكثر البلدان حرارة على وجه الأرض.

تعاونّا على حمل مائدتنا الصغيرة إلى سطح المبنى، لنفطر في الهواء الطلق، ونتمتع بمنظر غروب الشمس التي يبتلعها الجبل الشاهق الذي يلوح من سطحنا.

تعالت أصوات المؤذنين، معلنة حلول وقت الإفطار، أكلنا بضع تمرات ثم أدينا صلاة المغرب وبعدها تناولنا إفطارنا، أحببت النكهة الخاصة والطقوس الروحانية التي تميز هذا الشهر الكريم بهذه البلاد التي احتضنتنا.

قصدنا مسجد «سوريا» أو جامع السوريين كما يطلق عليه أهل طنجة لنؤدي صلاة التراويح، وعدنا إلى البيت، وجدنا جورج منشغلا بإطعام جروه الذي أطلق عليه اسم «بوني»، دخل نورس إلى المطبخ، وحضر لنا أكلة الفلافل السورية، في حين كنت أنا وجورج قد حضرنا مسبقا طاجين اللحم بالبرقوق واللوز والسمسم، إضافة إلى الكسكس المالي، تناولنا عشاءنا ثم تسلينا قليلا بلعب الورق ونحن نتجاذب أطراف الحديث حول عادات وتقاليد بلداننا المختلفة في شهر الصيام.

شغلنا التلفاز الصغير الذي ابتعناه أخيرا من سوق «كاساباراطا» لتنهال علينا صور مجازر الإبادة المستمرة لمسلمي بورما، والقصف المكثف لسوريا، والذي لم يتوقف حتى في شهر الغفران.

أطفأ جورج التلفاز اللعين الذي يحرص على تذكيرنا بأوجاعنا ومآسينا المشتركة، تنهد نورس وقال:

- هناك من يعشق إشعال فتيل الفتنة في بلده، ويقف مستمتعا بمحارق أبناء جلدته، كأن جده الأكبر هو «نيرون».

***

-١٣-

في ليلـة القـدر العظيمـة، الـتي تُـشرع فيهـا أبـواب السـماء، قصدنـا ضريـح «سـيدي بوعراقيـة» الرجـل الضليـع في علـوم الديـن والفقـه، والمنحـدر مـن سـلالة شريفـة تربطـه بالمـولى إدريـس، والـذي أطلـق عليـه أهـل طنجـة هـذا اللقـب كونـه كان يضـع عـلى رأسـه عمامـة خـضراء اشـتهر بهـا أهـل العـراق في ذلـك الحـين.

عبرنـا بـاب الضريـح لنقـوم بإحيـاء هـذه الليلـة المباركـة، تفاجـأت حـين قـال لي نـورس:

- أتمـنى أن يغفـر الله لي خطايـاي وضعـف نفـسي أمـام الإغـراءات والـنزوات.

أجبته:

- «كل ابـن آدم خطـاء، وخـير الخطائـين التوابـون». كمـا قـال الرسـول الكريـم صـلى الله عليـه وسـلم، كلنـا نحمـل أوزارا ثقيلـة عـلى أكتافنـا، لكـن الله غفـور رحيـم.

شعرنا بالسكينة تغمرنا ونحن نردد خلف الشيخ المتصوف:

- «اللهـم اجعلـني لـك شـاكرا، لـك ذاكـرا، لـك راهبـا، لـك مطواعـا، إليـك مُخبتـا، إليـك أواهـا منيبـا، رب تقبـل توبـتي واغسـل حوبـتي، وأجـب دعـوتي وثبـت حجـتي واهـد قلـبي وسـدد لسـاني واسـلل سـخيمة قلـبي..

اللهـم باعـد بيـني وبـين خطايـاي كمـا باعـدت بـين المـشرق والمغـرب، اللهـم نقـني مـن الخطايـا كمـا ينقـى الثـوب الأبيـض مـن الدنـس، اللهـم اغسـلني مـن خطايـاي بالمـاء والثلـج والـبَرَد..

ربنـا لا تؤاخذنـا أن نسـينا أو أخطأنـا ربنـا ولا تحمـل علينـا إصرا كمـا حملتـه عـلى الذيـن مـن قبلنـا ربنـا ولا تحملنـا مـا لا طاقـة لنـا بـه واعـف

عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

***

فإذا بك ضاق الذرع فقل.. اشتدّي أزمة تنفرجي

(ابن النحوي- قصيدة المُنفرجة)

أضغاث أحلام

-١-

هاتفتـني أماديـا في منتصـف شـهر أغسـطس، لتفاجئـني بقولهـا لي إنهـا في طنجـة منـذ ثلاثـة أيـام، صرحـت برغبتهـا في الالتقـاء بي قبـل صعودهـا عـلى مـتن قـارب الحلـم، فجْـر الثلاثـاء المقبـل، بهـدف العبـور إلى إسـبانيا، ضربـت لهـا موعـدا مسـاء يـوم الأحـد بأحـد المقاهـي المعروفـة، القريبـة مـن الكورنيـش.

سُررت كثـيرا لـدى رؤيتهـا تتجـاوز البـاب الزجاجـي للمقهـى، كانـت تبـدو جذابـة للغايـة بضفائرهـا الجميلـة، وبثوبهـا المزركـش، عانقتهـا طويـلا ثـم جلسـنا، طلبتُ مـن النـادل أن يجلـب لهـا كوبـا مـن الكوكتيـل الاسـتوائي، تحدثنـا بـلا توقـف، هنأتهـا عـلى نجاحهـا أخـيرا في توفـير المبلـغ المطلـوب مـن أجـل العبـور إلى الضفـة الأخـرى، المحـدد بألفـيْ دولار، ابتسـمت لي وقالـت:

- عزيـزي مامـادو، أعـدك بأنـني لـن أنسـاك أبـدا ولـن أتخلى عنـك.. لذا، إذا حالفـني الحـظ في الوصـول سـالمة إلى إسـبانيا، فإنـني أعـدك بالعـودة مـن أجلـك لنـتزوج وآخـذك معـي، فـور عثـوري عـلى عمـل وتمكـني مـن تسـوية وضعيـتي، وبعدهـا، سـتلتحق بنـا أمـي الغاليـة ومـلاكي شـاد، لنعيـش جميعـا بسـعادة في الإلـدورادو.

صمتت قليلا وتابعت:

- لكـن إذا حصـل لي مكـروه، وعـبرت إلى الضفـة الأخـرى وأنـا مجـرد جثـة مُزْرَقَّـة منتفخـة تطفـو عـلى سـطح المـاء، فإنـني أوصيـك بالاطمئنـان عـلى أمـي وفلـذة كبـدي شـاد، لأنـني كل مـا تبقـى لهمـا في هـذه الحيـاة

قلت:

- سـتصلين وأنـت حيـة ترزقـين بـإذن الله، لأنـني متأكـد مـن أن بائعـة الأمـل القويـة تتخطـى كل الصعـاب.

وضعتْ يدها فوق يدي، وقالت بإصرار:

- عـدني بأنـك سـتطبق وصيـتي الأخـيرة إذا مـا مـتُّ، ليـس لـدي سـواك، أرجـوك مامـادو!

شـعرتُ بغُصـة، قبـل أن أطمئنهـا وقلـبي يعتـصر ألمـا بأنـني سـأحرص عـلى تنفيـذ وصيتهـا مـا دمـتُ حيـا.

لمعت عيناها كنجمتين قطبيتين، وسألتني:

- أتحمل معك ورقة وقلما؟

فتحـت محفظـة نقـودي، أخـذت منهـا ورقـة صغـيرة، وقمـت لأسـتعير قلمـا مـن النـادل، عـدت إلى طاولتنـا، أمْلـت عـليّ أماديـا عنـوان وهاتـف والدتهـا، دونتهمـا بالورقـة وخبأتهـا بعنايـة داخـل محفظـتي.

نظرت إليّ بامتنان قائلة:

- أتمـنى أن تتمكـن شـاد مـن ولـوج المدرسـة، كي لا تصـير في المسـتقبل نسـخة مكـررة مـني.

أدرت دفّة الحديث، وقلت:

- ألا ترغبين في التجول قليلا بهذه المدينة الساحرة؟

ضحكت وردت ممازحة إياي:

- بـلى، اعتقـدت أنـك لا تـود اصطحـابي في جولـة اسـتطلاعية خوفـا مـن أن أكلفـك الكثـير أيهـا البخيـل!

غادرنـا المقهـى، مررنـا بمحـاذاة الكورنيـش، ثـم قصدنـا السـوق الداخـلي، تجولنـا بالمحـلات التجاريـة، راقـني مشـبك شـعر مُطَعّـم بأحجـار ملونـة، ابتعتـه لهـا كتـذكار، شـكرتني عـلى هديـتي وأكملنـا سـيرنا. فجأة، قالت:

- في الليلـة الماضيـة كنـت نائمـة في الغابـة الـتي تُخبئنـا فيهـا شـبكة التهجـير الـسري، في انتظـار يـوم العبـور العظيـم، راودني حلـم مُبهـم لـم اسـتطع فـك شـيفرته، لكنـني مضطـرة لأن أرويـه لـك.

في حلمي المزعج، رأيتك تائها في غابة ممتدة الأطراف، كان الضباب كثيفا، والبرد قارسا، رفعتَ رأسك نحو السماء، كان القمر في حالة خسوف، وما أن انتهى الخسوف، حتى استحال قمرا دمويا.

استمر تيهك لمدة.. قبل أن تتوقف أمام حاجز شاهق، مكون من أسلاك شائكة.. كانت هذه الأسلاك ملطخة بالدماء.

سألتها بهلع:

- أليس لديك تفسير لهذا الحلم، أو بالأحرى الكابوس؟

وجهت إليّ نظرات حائرة، وأجابت:

- لا أعرف معناه بالضبط، ما أعرفه هو أنه عليكم أن تتوخوا الحذر، وتنتبهوا جيدا إلى إشارات السماء.. إياك أن تنزع التميمة الحمراء التي أعطيتك إياها، لأن قوتها السحرية ستوفر لك الحماية.

أشارت إلى معصمها، وقالت مبتسمة:

- لولاها ما كنا لنصل إلى طنجة بسلام..

فتحت حقيبة يدها، أخذت منها تميمتين مماثلتين، وضعتهما في راحة يدي، وقالت:

- أعطهما لعبدول وجورج، لا تنسَ أن تُبلغ تحياتي وامتناني لجورج الطيب الذي بفضله عثرت على عملي بسوق فاس، قل له: أختك أماديا تقول لك: سنلتقي عما قريب.

***

-٢-

قبـل نهايـة يـوم الثلاثـاء، كان «أنـوال» غاصـا بزبائـن مـن جنسـيات متعـددة، كنـت منهمـكا في أخـذ وجلـب الطلبيـات، وفجـأة، توجهـت أنظـار الجميـع نحوشاشـة التلفـاز، واغرورقـت عينـا سـائحة إسـبانية مسـنة بالدمـوع.

كان مقـدم نـشرة الأخبـار قـد اسـتهلها بخـبر غـرق قـارب مطاطـي كان يقـل نحـو سـتين مهاجـرا سريـا مـن بلـدان مختلفـة، مـن بينهـم مغاربـة وأفارقـة مـن دول جنـوب الصحـراء، إضافـة إلى نسـاء حوامـل وأطفـال صغـار.

أحسسـت بهـزة قلبيـة قويـة لـدى رؤيـتي لجثـة أماديـا في الريبورتـاج لحظـة انتشـالها مـن طـرف السـلطات الإسـبانية، أماديـا الـتي ابتاعـت تذكـرة سريعـة نحـو المـوت، الـذي لـم تـدرك بحاسـتها السادسـة أنهـا عـلى موعـد معـه، يـوم السـفر العظيـم، ولـم يزرهـا حلـم إنـذاري فيـه تحذيـر ينبئهـا بنهايتهـا، وبأنـه حـتى لـو لـم يوقـف مركبهـا خفـر سـواحل الأحـلام، فـإن طيـف المـوت سـيقبض روحهـا عنـد أول زقـاق بحـري هائـج.

في ذلـك اليـوم، عرفـت المعـنى الحقيقـي لمصطلـح «قـوارب المـوت»، هـذه القـوارب الـتي يصعـد عـلى متنهـا الحالمـون وهـم يحملـون معهـم آمالهـم في غـد أفضـل بعـد وصولهـم إلى الفـردوس المفقـود، وعرفـت كذلـك لمـاذا يُلقبـون هـذا البحـر الـذي يتهيـأ لنـا أنـه هـادئ ومُمَهَّـد بالمقـبرة المتوسـطية.

انهـرت باكيـا، تحسسـت تميمـة أماديـا، تلـك التميمـة الـتي لـم تحمهـا مـن قدرهـا المحتـوم رغـم أنهـا كانـت لا تفـارق معصمهـا.

أماديـا السـاحرة الـتي انقلـب سـحرها عليهـا، لـذا، لـم تسـاعدها

طلاسمها وتعاويذها في النجاة والعبور إلى جزيرة الأحلام وهي لا تزال على قيد الحياة والأمل.

رحلت أماديا بائعة الأمل إلى عالم خال من الوجع، بعدما أنارت ظلمة كهف وحدتي للحظات وجيزة.. انطفأت بسرعة شمعة، كما انطفأت شعلة الحياة في عينيها المشعتين ببريق الحلم الزائف.

واستني أمي الروحية تلايْتماس، لكنني لم أتمكن من حبس سيل دموعي الحارقة، لأن المشاهد الرمادية للقاء وداعي لأماديا بقيت تعرض أمام عيني على شاشة الأسى، ذاك الأسى الذي كبلني في مكاني طويلا، كما بقيت وصيتها الأخيرة لي تتردد في أذني بلا توقف، كأسطوانة موسيقية قديمة، حزينة، منسية فوق قارئ أسطوانات أثري.

بعد رحيل أماديا، وعدتني أمي ثْلايْثْماسْ بتسوية وضعي أنا وأخويَّ عبدول وجورج كي لا نلقى المصير ذاته.. أخبرني نورس بأنه سبق لهذه السيدة العظيمة -التي بعثها الله لنا لتضمنا تحت جناحيها- أن سوَّت وضعه ووضع والدته وشقيقتيه اللتين تمكنتا بفضلها من ولوج الجامعة.

عرضت على جورج فكرة تسوية وضعنا، كي لا نظل مهاجرين سريين خائفين، وفاجأني حين رفض عرض تلايتماس، ودعاني إلى تسوية وضعي أنا وعبدول فقط، قائلا إن مشغله الفرنسي سيباستيان قد وعده مسبقا بذلك.

***

-٣-

بدايـة شـهر سـبتمبر، اقـترح علينـا جـورج الـذي كان متأثـرا للغايـة بالمصير المأسـاوي الـذي لقيتـه أماديـا، المسـاهمة معـه في جمـع مبلـغ مـن المـال مـن أجـل إرسـاله إلى أمهـا المكلومـة وابنتهـا شـاد، حينهـا، قـال لي جملـة مؤثـرة نُقشـت في ذاكـرتي:

- حـتى لـو لـم أكـن موجـودا ليلـة المذبحـة لأسـاعد ابـني ليونيـل، فعـلى الأقـل يمكنـني مـد يـد العـون إلى الصغـيرة شـاد، عسـاني بذلـك ارتـاح قليـلا مـن التعذيـب المجـوسي الروحـي الـذي أتعـرض لـه كل ليلـة.

لـم نـتردد ولـو لثانيـة في جمـع المسـاهمات، وضعـت مسـاهمتي ومسـاهمتيْ جـورج وعبـدول في ظـرف صغـير، وأعطانـا ميكائيـل وأصدقاؤه قـدرا مـن المـال، كمـا سـاهم معنـا كل مـن نـورس، تلايْتْمـاس، عليـاء، الخالـة اعويشـة، العـم عبـد الله ومسـاعده سـالم بمبالـغ متفاوتـة كل حسـب اسـتطاعته وإمكانياتـه.

في النهايـة، تمكنّـا مـن جمـع ألـف وخمسـمئة دولار، اتصلـت بـأم أماديـا الـتي كان جليـا مـن طريقـة حديثهـا أنهـا لا تـزال تحـت وقـع صدمـة الفقـد، لأعلمهـا بأنـني سأرسـل لهـا في صبـاح اليـوم المـوالي حوالـة ماليـة، شـكرتني وهـي تنتحـب، ودَعَـت الله أن يحفظـني مـن كل مكـروه، ويجنبـني الأذى الـذي تعرضـت لـه ابنتهـا.

في ذلـك الصبـاح، اسـتأذنت أمـي تلايْتمـاس لأقصـد إحـدى وكالات تحويـل الأمـوال، كي أبعـث المبلـغ المحصـل إلى أسرة أماديـا الصغـيرة، أنجـزت مهمـتي وفي طريـق عـودتي إلى المطعـم، لمحـت مصادفـة طفلـة بائسـة، متسـخة، لا يتجـاوز عمرهـا السـت سـنوات، تفـترش الأرض في مـكان لا يبعـد كثـيرا عـن مدخـل إقامـة سـكنية فاخـرة، تقـع بشـارع خلفـي قريـب مـن الشـاطئ، دون أن يكـترث لهـا أحـد.

تأملتها قليلا، كانت في حالة مزرية، لاحظت أنها شاحبة، هزيلة، شعرها أشعث، هالني منظر وجهها الملائكي المغطى بكدمات قاتمة وجروح ملتهبة، كانت حافية القدمين، ترتدي ثوبا صيفيا قصيرا، ممزقا، يكشف عن آثار كيّ بالسجائر في ذراعيها وصدرها، كما كانت تعاني من حروق على مستوى ساقيها، بدا لي كما لو كان أحدهم قد سكب عليها مياها ساخنة.

اقتربت منها، جَفَلَتْ لدى رؤيتها إياي، وانكمشت في زاويتها، طمانتها بأنني لن أؤذيها، عرفتها بنفسي ثم سألتها عن اسمها، أجابت بعد تردد:

- اسمي «غيثة».

جَثوْتُ على ركبتي، مسحت على وجهها بحنان، قبل أن أسألها عمن سبّب لها تلك الجروح والكدمات، انخرطت في البكاء، وقالت بصوت خفيض :

- كنت أقيم مع أمي عند مشغليها، توفي أبي عندما كنت رضيعة، ولهذا اضطرت والدتي إلى الخدمة في البيوت.. قبل شهر، تعرضت أمي إلى حادث سير مميت، وبعد وفاتها، أرغمني مشغلوها الأغنياء النافذين على القيام بالمهام التي كانت تقوم بها، كانوا يكلفونني بأشغال شاقة لا طاقة لي بها، ويستغلون أي فرصة أو خطأ لتعنيفي وتعريضي لشتى صنوف التعذيب، كوني ليست لدي عائلة، وليس لدي من يحميني بعد رحيل أمي.

قبل يومين، صبّت مشغلتي متحجرة القلب زيتا مغليًا على قدمي، فقط لأنني لم أعرف طريقة كيّ الملابس، أغمي على من شدة الألم، لاستفيق في الصباح وأجد نفسي ملقاة في الشارع، ربما لأن مشغلتي وزوجها اعتقدا أنني سألفظ أنفاسي الأخيرة، ولهذا تخلصا مني.

حاولت السير جاهدة إلا أنني لم أستطع الوقوف على ساقي المحترقتين، فزحفت حتى وصلت إلى هذا المكان، لكن لم ينتبه إلى أحد، وبقيت هنا، أعاني من آلام فظيعة، وأكاد أموت جوعا وعطشا.

حملتها بين يدي، ورأسي يعج بالاحتمالات، لم أدر أين سأمضي بهذه الطفلة المعذبة، توقفت أمام متجر بقالة لأبتاع لها ما تسد به رمقها، صُعق الحاج صاحب المتجر حين رأى حالة غيثة، وسألني عما أصابها، حكيت له باقتضاب، تأثر كثيرا ثم أعطاني كيسا ملأه بالكعك وعلب العصير، أبى أن يقبض ثمن تلك الأغراض، وودعني وهو ويضرب كفا بكف، ويطلب من الله أن ينزل غضبه وعقابه على هؤلاء الوحوش الظلمة.

وسط حيرتي الشديدة، اهتديت أخيرا إلى مهاتفة الأم تلايتْماس، أخبرتها بأنني عثرت على طفلة يتيمة في حالة صحية حرجة، وتحتاج إلى مساعدة طبية عاجلة، بعد تعرضها للتعذيب على يد مشغليها، دللتها على مكاننا غير البعيد عن المطعم، بعد لحظات، قدمت مستقلة سيارتها، ترجلت منها بسرعة وأمارات القلق والفزع بادية على محياها، وما أن لمحت غيثة حتى أخذتها من بين يدي، قبلتها وضمتها إلى صدرها وقالت والدموع تفيض من عينيها:

- إنها هبة السماء لي بعد سنوات من الانتظار، سآخذها معي لأعالجها وأرعاها وأكفلها.

ساعدتها على وضع الطفلة في المقعد الخلفي للسيارة، وقبل أن تمضي في طريقها، التفتت نحوي قائلة:

- شكرا ابني محمد على إنقاذك لهذه الطفلة المسكينة، وعلى تحقيقك حلمي الذي أوشك على الاحتضار.

***

-٤-

فاجأنا جورج ليلة الخميس الأخير من شهر سبتمبر بدعوته لنا أنا وعبدول للخروج معه في يوم الغد، للاحتفال بعيد ميلاده، سُررنا لأننا كنا فعلا في حاجة ماسة إلى الفرح، وطرد رواسب الحزن والكآبة التي علقت بأعماقنا وعمَّرت معنا طويلا عقب رحيل أماديا.

في الصباح، رجوت أمي تلايْتْماس أن تسمح لي بالمغادرة بحلول الساعة السادسة مساء، لأن ذلك اليوم يصادف عيد ميلاد نبراسنا وأخينا الغالي جورج، منحتني الإذن وطلبت مني أن أبلغ تهانيها له، وأمانيها بأن يحقق حلمه في عامه الجديد.

غادرت «أنوال» وابتعت له مزهرية مزخرفة، ثم قصدت ساحة الأمم التي جعلناها نقطة التقائنا.

تنزهنا قليلا، أنعشنا النسيم الخريفي، توقف جورج فجأة وقال:

- تخيلا معي أنكما قد عثرتما لتَوّكما على مصباح سحري، بعد دعكه انبعث منه دخان كثيف، وتجسد لكما مارد الأمنيات ليطلب من كليكما أن يتمنى أمنية واحدة لهذه الليلة، اعتبراني مارد أمانيكما، فماذا ستطلبان؟

قلت بابتهاج:

- منذ مدة وأنا أرغب في الذهاب إلى السينما، علمت أنهم يعرضون هذا الأسبوع بقاعة «باريس» فيلم Mad Max.

صاح عبدول كمعتوه:

- وأنا أرغب في تأمل القمر والنجوم والبحث عن نجمتي الحارسة على شاطئ البحر.

فرك جورج يديه بحماس، وقال:

- سمعا وطاعة، طلباتكما مستجابة!

سرنـا بخطـى حثيثـة، حـتى توقفنـا أمـام مدخـل السـينما، ابتعنـا التذاكـر، واشـترينا أكياسـا مـن الفُشـار ورقائـق البطاطـس وقنينـات الصـودا، ثـم تبعنـا فتـاة جميلـة قادتنـا إلى مقاعدنـا، أعجبنـا الفيلـم كثـيرا عشـنامع مشـاهده الخياليـة المثـيرة، إلى درجـة أننـا فوجئنـا بنهايتـه.

بعـد خروجنـا مـن السـينما، دعـوت أخـويّ إلى تنـاول وجبـة عشـاء عـلى شرف جـورج، في مطعـم مشـهور بتقديـم الأكلات البحريـة، قبـلا دعـوتي بـكل سرور، جلسـنا وطلبـت أطباقـا مـن ثمـار البحـر الشـهية.

أعطيـت هديـتي وهـي المزهريـة لجـورج، وأعطـاه عبـدول هديتـه الـتي كانـت عبـارة عـن حاملـة مفاتيـح يتـدلى منهـا حجـر الأماتيسـت الأخـضر، كُتـب عليهـا اسـمه، قائـلا:

- قـررت أن أهديـك حاملـة المفاتيـح هـذه لأن هـذا الحجـر البلـوري معـروف بأنـه جالـب للحـظ، وطـارد لـلأرواح الشريـرة.

ابتسـم لنـا جـورج شـاكرا، أنهينـا وجبتنـا وتوجهنـا إلى البحـر لنحقـق أمنيـة الطفـل الكبـير عبـدول.

عـلى الرصيـف المقابـل للشـاطئ، صادفنـا قزمـا بشوشـا، أنيقـا، يرتـدي بذلـة سـوداء وحـذاء صغـيرا لامعـا، ويضـع في معصمـه سـاعة ذهبيـة فاخـرة، كان قـد غـادر للتـو ملهـى ليليـا ليقصـد ملهـى الفنـدق المجـاور، صافـح حـارسي الأمـن الخـاص واختفـى بالداخـل.

علق عبدول:

- هـل رأيتمـا هـذا القـزم العجيـب الـذي يسـتمتع بوقتـه؟ أحيانـا، تبـدو لي طنجـة مدينـة غرائبيـة خرجـت مـن رحـم الأسـاطير!

حدق جورج في وجهه طويلا، قبل أن يقول له:

- وأحيانـا، يبـدو لي أنـك مخلـوق عجيـب فـر مـن سـيرك غرائـبي! ألا يحـق لهـذا الإنسـان أن يُرفّـه عـن نفسـه قليـلا؟

ضحكنا جميعًا، ومشينا فوق الرمال التي جعلتها إنارة مصابيح الكورنيش تتماهى مع أحجار كوارتز متلألئة ضخمة.

رفعنا رؤوسنا نحو السماء المرصعة بالنجوم البراقة، تذكرت كابوس أماديا وانقبض قلبي حين سمعت جورج وهو يقول:

- سيشهد كوكبنا فجر هذا الأحد خسوف القمر الدموي، الذي أتى ذكره في سفر «يوئيل»:

«تتحول الشمس إلى ظلمة، والقمر إلى دم، قبل أن يجيء يوم الرب العظيم».

***

-٥-

أفقت في ساعة مبكرة من صباح يوم الغد لأقصد «أنوال»، كان جورج قد غادر، خلت أنه قد توجه إلى عمله في الساعة السادسة كالمعتاد، خرجت من غرفة النوم لأحضر فطوري أنا وعبدول الذي كان سيبدأ مناوبته في موقف السيارات على الساعة الثانية عشرة، على حين غرة انتبهت إلى ظرف متوسط الحجم، متروك على طاولة الطعام، كانت المزهرية التي أهديتها لجورج في الليلة السابقة موضوعة فوقه.

فتحت الظرف بسرعة، وتسارعت نبضات قلبي عندما وجدت بداخله مبلغا كبيرا من المال، مصحوبا برسالة بخط جورج، قرأت:

- «أخويّ الصغيرين: بول وعبدول..

قبل بضعة أيام، رأيت في منامي القديس الكاميروني المضحي، خادم الرب الأب سيمون، كان جالسا على ضفة نهر عظيم، وكان النور يغمر المكان، ابتسم لي وقال:

- انتهى دورك في الحياة، ولهذا سيتحقق حلمك أخيرا في الالتقاء بعائلتك حين يصير القمر كالدم.

فرحت كثيرا بهذه الرؤيا العظيمة، المُبَشرة بدُنو انتهاء حياتي التي عذبتني كثيرا.. لأنه في الحقيقة لم يكن حلمي هو العبور إلى الإلدورادو، كان ذلك مجرد ذريعة، عندما قدمت إلى المغرب، كنت في حالة شبيهة بغيبوبة خارج الزمن، جراء صدمتي بعد فقدي لأسرتي، هربت من أطياف الموتى الذين قضوا في تلك المذبحة الرهيبة، إلا أنني لم أستطع إغلاق صندوق البَانْدُورا على أشباح الماضي، لذا، خرجت هذه الأرواح الغاضبة منه، واستمرت في ملاحقتي أينما حللت وارتحلت..

لـم يكـن الحلـم الإفريقـي الـذي جمعنـا هـو حلمـي الحقيقـي، حلمـي الوحيـد كان هـو التمكـن مـن عبـور نهـر المـوت لألتحـق بـأسرتي، لكنـي حـين التقيتكمـا، وعوضتمـاني قليـلا عـن أحبـائي الراحلـين، رغبـت بشـدة في أن أسـاعدكما عـلى الاقـتراب مـن حلمكمـا، لعـلي حينهـا أكـون قـد قدمـت لكمـا المسـاعدة الـتي لـم أسـتطع تقديمهـا لعائلـتي في ذاك اليـوم المشـؤوم الـذي عصـف بحيـاتي..

كثـيرا مـا سـألت الله عـن سـبب بقـائي عـلى قيـد شـبه حيـاة تجلـدني كل يـوم بسـياط الوجـع المُدميـة، وإن كان حقـا حلمـي وذريعـتي هـو دافعـي للاسـتمرار في تقمـص دور الرجـل الحـي. بعـد رؤيـتي للقديـس سـيمون خـادم الـرب، توصلـت إلى حقيقـة أنـني كنـت هنـا مـن أجلكمـا أنتمـا، ومن أجـل أحلامكمـا، أعتـبر أنـني قـد أديـت الـدور المُـوكل لي مـن طـرف الـرب كمـا يجـب، سـيما بعدمـا اطمأننـت عليكمـا بعـد تسـوية الأمر تلايْتْمـاس لوضعيتكمـا.

تعبـت مـن التظاهـر بأنـني واجهـة مضـادة لرصـاص الحيـاة، ولهـذا سأنسـحب مـن الدنيـا بهـدوء، كي لا أسـتمر في العيـش داخـل عالـم مُـواز لعالمنـا، عالـم مرعـب كلـه أطيـاف وأرواح تائهـة..

أرجوكمـا ألا تتوقفـا عـن الإيمـان بحلمكمـا بعـد رحيـلي، وأن تتشـبثا بـه مهمـا اشـتدت أنـواء الحيـاة، بـول، لا تـدع مزهريـة حلمـك المزخرفـة تسـقط أرضـا وتسـتحيل شـظايا، أعـد إلى عبـدول حاملـة المفاتيـح ذات حجـر الأماتيسـت لأنـه أحـوج إلى الحـظ مـني..

آن أوان ارتمـائي في أحضـان المـوت وفيـه خـلاصي، سـأذهب لأقـف وجهـا لوجـه مـع الحاصـد الـذي أخلفـت موعـدي معـه، ولهـذا أبى أن يقطـف روحـي، سـأتخطى حاجـز الـردى، لعـل أحدهـم يطلـق عـليّ رصاصـة الرحمـة الـتي أجّلتهـا الحيـاة لمـدة طويلـة، سـأتركهم يطلقـون سراح روحـي المعذبـة لأنـه لـم تكـن لـدي الشـجاعة الكافيـة لأنهيهـا بمجـرد مـوت عائلـتي، عسـاني حينهـا أنجـح في عبـور نهـر المـوت، والصعـود عـلى مـتن أحـد قواربـه بأقـل الأوجـاع الممكنـة، ليوصلـني حـارس المـوتى إلى

الأبديـة، حيـث ينتظـرني والـداي، أشـقائي، حبيبـتي سـينثيا ومـلاكي ليونيـل الـذي لـم أره لأن الحيـاة لـم تسـمح لي بالتعـرف عليـه..

اعـذراني لأنـني لـم أعـد قـادرا عـلى تحمـل التعايـش أكـثر مـع متلازمـة الاحـتراق النفـسي، ولهـذا، فالمـوت هـو خيـاري الوحيـد. صغـيريَّ بـول وعبـدول، ممـتن لكمـا عـلى مشـاركتكما لي أحلامكمـا، وعـلى كل لحظـة سـعادة حقيقيـة أهديتمـاني إياهـا، أخـي بـول، أرجـوك اعـتن جيـدا بكلـبي الـوفي بـوني، وبمنحوتـاتي الخشـب الـتي أتـرك لـك مطلـق حريـة التـصرف فيهـا، كمـا تركـت لكمـا مدخـراتي الـتي تبلـغ خمسـة آلاف درهـم عـلى أمـل أن تسـاعدكما قليـلا في العبـور إلى إسـبانيا، مهمـا سـاءت الظـروف، لا تتنـازلا أبـدا عـن حقكمـا المـشروع في البقـاء عـلى قيـد الحلـم..

أرجـو أن تحتفظـا بمركـب الحلـم الإفريقـي الـذي سيسـاعدكما عـلى العبـور سـالمين إلى ضفـة الأمـاني.

الآن، بوسـعي الاهتـداء إلى نـور مَعْـبر الحيـاة الأخـرى بعدمـا اطمأنـنـت عـلى أخـوي الغاليـين..

أتمـنى أن تتفهمـاني وتسـامحاني عـلى قـراري هـذا الـذي تأخـرت في تنفيـذه، كمـا أتمـنى مـن كل قلـبي أن يسـامحني أبونـا الـرؤوف الرحيـم الـذي في السـماوات، ولا يرميـني في هاويـة الهـلاك..

سـألجأ إلى يسـوع المحـب، المخلّـص، ألـم يقـل: تعالـوا إليّ وأنـا أريحكـم.

سنلتقي في الأبدية، حيث لا مكان للحزن.

وداعا أيها الرجلان الإفريقيان الحُرَّان، الرائعان..

أخوكما: جورج».

***

-٦-

صفعت وجهي لأستفيق من هذا الكابوس الرهيب، لكنني اكتشفت أنه كثيرا ما تكون الحقيقة أبشع بكثير من كل الكوابيس.

ركضت لأوقظ عبدول، امتقع لونه بعد إتمامه قراءة رسالة وداع جورج لنا، اتصلنا بميكائيل، سألته عن جورج وكلي أمل أن يطمئنني بقوله إنه معه في موقع البناء، للأسف، ظلت أمنيتي هذه حبيسة مخيلتي، زنزانة الأماني المستحيلة.

قدم ميكائيل بعد لحظات وجيزة، وفي عينيه سحب رمادية من القلق والهلع، ارتمى على الأريكة فور اطلاعه على الرسالة الأخيرة التي خطها جورج، وقال والدموع تنهمر من عينيه:

- كان جورج يتصرف بغرابة طيلة هذا الأسبوع، إلا أنني أرجعت ذلك إلى تعبه الناجم عن ضغوط العمل. قبل يومين، لمحته في استراحة الغداء وهو ويتحدث مع شخص أو شيء لا مرئي، اختبأت وراء إحدى السواري، وسمعته يقول: «لا داعي للحزن أحبائي، قالت الساحرة أماديا إننا سنلتقي قريبا».

أضاف ميكائيل ونحيبه يتعالى:

- ليتني عرفت يومها معنى حديثه، ساعتها كنا سننتبه إليه ونسعى جاهدين لمنعه من إيذاء نفسه.

قضينا اليوم بطوله ونحن نبحث عنه بيأس رفقة أمي تلايْتْماس في أحياء طنجة، دون أن نعثر له على أي أثر.. كأن زلزالا مدمرا قد خسف الأرض التي ابتلعته.

اتصل ميكائيل بأصدقائه المهاجرين القاطنين بالمدن المجاورة، لينخرطوا معنا في البحث، بعدما أرسل لهم صورة جورج عبر رسائل على موقع التواصل الاجتماعي.

بحثنا وبحثنا.. لكن بلا جدوى.

كان الإحساس بالذنب ينهشني من الداخل رويدا رويدا، لأنني لم أنتبه إلى معنى آخر جملة نطقتها أماديا قبل رحيلها، ولم أُجِد قراءة لغة الإشارات كما أوصتني، كما أنني لم أدرك وسط فرحي أن ليلة عيد ميلاد جورج التي مضت كحلم قصير.. كانت ليلة وداعه الأخير لنا.

ورغم هذا كله، تمسكت بخيوط واهية من الأمل في العثور على جورج قبل أن يُلحق الأذى بنفسه، وقبل أن يُرديه حلمه بالعبور إلى ضفة العالم الآخر، لتلتقي روحه المعذبة بأرواح أحبائه الراحلين، تلك الأرواح الهائمة في برزخ الانتظار.

ليلة السبت، غفوت في ساعة متأخرة من فرط التعب، رغم أنني كنت حريصا على البقاء مستيقظا، لأطلب من الله أن يحمي عبده الضعيف جورج، ويعيده إلى رشده، استفقت على رنين الهاتف، كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحا، تناهى إلى صوت ميكائيل وهو يقول وسط دموعه:

- مامادو، ادخل إلى موقع يوتيوب بسرعة لتشاهد قبل الحذف فيديو مسرَّبا للحظة قتل مهاجر سري إفريقي على يد حرس الحدود الإسبانية بمدينة سبتة المحتلة، لقد اخترقته رصاصات بنادقهم وهو يتسلق «حاجز الموت»، حتى خضَّبت دماؤه تلك الأسلاك الشائكة..

أخيرا، توصلت إلى تأويل كابوس أماديا المروع..

أَرْدَوْا جورج كذبابة حقيرة، مزعجة.

***

-٧-

رحـل جـورج مُنقذنـا، الـذي لـم ينقـذ نفسـه، واستسـلم لظـلال المـوت..

صبـاح الاثنـين، أوصلتنـا تلايْتْمـاسْ أنـا وعبـدول وميكائيـل إلى مسـتودع الأمـوات بمدينـة تطـوان، القريبـة مـن سبتة، ومـا أن تجاوزنـا بابـه الأزرق الحديـد، حـتى امتـلأت رئتـاي برائحـة المـوت البـاردة.

للمـوت رائحـة مميـزة، نفـاذة، رائحـة مكونـة مـن مزيـج رطوبـة وعفونـة معتقتـين.

رافقنـا ممـرض إلى قاعـة ثلاجـات المـوتى، فتـح بـاب إحداهـا لنتمكـن مـن التعـرف عـلى جثـة جـورج، الـذي كان يبـدو كأنـه نائـم، وعـلى ثغـره نصـف ابتسـامة لـم يُمهلهـا الوقـت للاتسـاع، كانـت ملامحـه هادئـة كقديـس، لا يظهـر عليهـا أي أثـر للألـم، الخـوف أو النـدم، بخـلاف العديـد مـن المـوتى الذيـن رأيتهـم بمسـقط رأسي تمبتكـو، بـدا كمـا لـو أن المـوت هـو نهايتـه الـتي انتظرهـا، قـد حـرره أخـيرا مـن حمـل صخـرة الأحـزان الـتي أثقلـت روحـه وأرقـت مضجعـه لزمـن طويـل.

اليـوم، وأنـا أسـترجع هـذه الذكـرى المؤلمـة، أفكـر في أن الصـورة الـتي رأيتـه عليهـا بعـد عبـوره ضبـاب الـردى، كانـت انعـكاس صـورة جـورج الحـي، السـعيد، قبـل أن يعلـق في متاهـة المـآسي.

لاحظـت أنـه كان يُحكـم قبضتـه اليـسرى عـلى شيء مـا، لامسـت يـده البـاردة كالصقيـع، وحاولـت أن أفتحهـا، فتحتهـا بصعوبـة بالغـة، وانسـابت الدمـوع مـن عيـني حـين وجـدت الجـورب الصـوف الخـاص بابنـه ليونيـل الـذي لـم يولـد، في راحـة يـده.

تكلفـت تلايْتْمـاسْ بالإجـراءات اللازمـة لتسـلم جثمانـه كي يتسـنى لنـا دفنـه في المقـبرة المسـيحية بطنجـة.

بعد انتهائنا من مراسم تشييع جورج إلى مثواه الأخير، بدأنا حملة واسعة هدفها تنظيم مسيرة احتجاجية، سلمية، أطلقنا عليها اسم «مسيرة شموع الرحمة»، تنديدا بالجريمة النكراء التي اقتُرفت في حق جورج.

لقيت حملتنا تجاوبا منقطع النظير من طرف الجمعيات الحقوقية والمدنية، والأوروبيين المقيمين بالمغرب بمن فيهم المواطنون الإسبان، وطلبة الجامعات والمعاهد الخاصة المغاربة والأفارقة المنحدرين من دول جنوب الصحراء، إضافة إلى الحركة المناهضة للعنصرية «لا أدعى عزّي».

في مساء ذلك الأحد الغائم، تجمعنا بحي فال فلوري وانطلقنا سيرا على الأقدام إلى أن توقفنا بساحة الأمم، كان ممثلو الجمعيات الحقوقية يرفعون لافتات مندددة بهذا الجرم الشنيع، وكنا نحمل في أيدينا شموعا وصورا لجورج، ونردد بحرقة هتافات استنكارية ضد العنصرية، والجرائم الوحشية التي ترتكب بين الفينة والأخرى ضد المهاجرين السريين بثغرة سبتة.

كنت أردد الشعارات بحماس وغضب، حين أدرت وجهي ولم أعثر على عبدول إلى جانبي، التفتُ يمينا ويسارا، لكنني لم ألمحه وسط الجمع الغفير.

لم يبدأ القلق بالتسرب إلى نفسي إلا بعد انتهاء المسيرة دون أن يظهر عبدول، بحثت عنه أنا ونورس وميكائيل في الأرجاء، اقتفينا أثره طويلا، لكنه كان قد تبخر، خشيت أن يصيبه مكروه يفقدني إياه، خصوصا بعدما تذكرت أنه انهار إثر مقتل جورج، وصار يشرد طويلا، ويصمت قبل أن ينطق بكلام غير مفهوم، كأن صدمته النفسية الشديدة عقب هذا الحادث المريع، قد أصابته بلَوثة دماغية جعلته يفقد ما تبقى من قواه العقلية.

أسقط في يدنا، وعدنا معا إلى البيت ونحن نأمل أن نجده هناك.

الكوارث تأتي تباعا..

والأحــزان تتكالــب علينــا كعقبــان جائعــة، متوحشــة، تنهــش جثــت الهالكــين في صحــراء الأحــلام المغتالــة..

في الصباح، عاد عبدول إلى البيت، وهو ويعاني من الحمى ويهذي..

سألته عما أصابه، أجابني كمن يعاني من مس شيطاني:

- ضاعــت نجمــتي.. اختفــت ليلــة عيــد ميــلاد جــورج.. أنــا الســبب في موتــه لأنــني ضيعــت نجمــتي الحارســة.. ولهــذا أصابتنــا لعنــة الفقــد.. بحثــت عنهــا ليلــة أمــس لكنهــا أبــت الظهــور لتنــير طريقنــا مجــددا.. علينــا أن نعــثر عليهــا بــأسرع وقــت، لعلنــا ننجــح في إيقــاف دوران عجلــة المــوت..

عانقته وقلت له:

- هون عليك يا أخي العزيز.. أعدك بأننا سنعثر عليها عما قريب.

***

-٨-

برحيل جورج، أحسست بأنني فقدت قطعة مني..

صعب أن أنسى الأثر الذي خلفه مروره السريع بحياتي التي غيرها جذريا، لأن شخصا مثله، يستحيل أن ننبذ ذكراه في ركن قصيّ من أعماقنا، ونمضي قدما في طريقنا لنحقق أحلامنا الزهرية التي فقدت الكثير من بريقها بعده.

أكثر شيء أثّر في نفسي، هو أنه رحل عن عالمنا دون أن يتمكن من رؤية تجسيد حلمه بأن يُقدّر الناس فنه، وهو لا يزال على قيد الحياة، في نظري، أقسى شيء هو أن يقطف الموت روح الإنسان، قبل أن يقطف ثمار أحلامه.

تذكرت قوله لي، عقب وصولنا إلى طنجة:

- « إذا كانت لا تزال لدي أمنية في جُعبة الأماني التي لم تتحقق، فإنني أتمنى أن يرى الناس فني ويقدروه، ولو بعد رحيلي إلى العالم الآخر».

فكرت مليّا في ما سيسعني فعله من أجل تحقيق حلمه، خصوصا أنه قد ترك لي حرية التصرف في منحوتاته، بعد طول تفكير، ارتأيت أن أقترح على أمي تلايْتْماس ابتياع واجهة زجاجية ووضعها في أحد أركان المطعم، بُغية عرض المنحوتات الخشب التي صنعها جورج، وتركها كعلامة شاهدة على أنه إنسان وفنان مرهف وخلاق.

رحبت بهذا العرض، شريطة أن أسمح لها بأن تبتاعها مني بالثمن الذي تراه مناسبا، كتقدير منها لفن ونُبل جورج.

ابتاعت المنحوتات بثمن لم أكن لا أنا ولا جورج حتى لنحلم به، قررت أن أبعث جزءا من المبلغ لابنة أماديا «شاد»، لأحقق حلم والدتها في التعلم، والعيش بكرامة.

رتبنا منحوتات جورج على رفوف الواجهة التي وضعنا فوقها لوحة نُقش عليها:

- «إلى ذكرى جورج الغالي، الفنان الذي تمنى أن يرى الناس فنه ويقدروه، لن ننساك».

***

-٩-

كتبت محاولة شعرية قصيرة عن جورج:

- «في مساء الذكرى..

أنظر إلى طيفك الهارب من شاطئ الذكريات،

زخات مطر الحنين الخريفي تبللني..

والبحر الذي توقف عن المد بعدك،

يبكي سرا ويذكرني بأنك مررت من هنا،

منذ شهر، منذ دهر، صحبة بضع أمنيات..

لم يعد البحر بحرا.. منذ تخلفت عن موعدك معه..

لم يعد الرمل رملا.. منذ لم تطأه قدماك..

ولم أعد أجمع الصدف المتناثر على رمل الأحلام

وفاء مني لذكراك..

ترى ماذا كنت سأفعل لو ظللت هنا؟

أكنت سأقطع معك بحر المستحيل؟

وأعبر معك إلى جُزر الأمنيات؟

للأسف لست هنا..

وأنا لوحدي في شاطئ الذكريات..

لا أمسك سوى بضع أمنيات».

طلبت رأي صديقي الشاعر نورس، الذي فاجأني بمجرد أن انتهى من قراءة أسطرها الشعرية التي راقته بقوله:

- اكتب لتتحرر، اكتب مذكراتك وفيها خلاصك، «اكتب كلمتك قبل أن تموت فإنها ستعرف حتما طريقها» كما قال الشحرور الأبيض

شكري.

قلت:

- صعب أن أكتب مذكراتي بعد مرور كل هذه الأشهر.. لا بد من أن أغفل بعض الجزئيات والأحداث التي سقطت سهوا من ذاكرتي وتبخرت، ربما لتحميني من وجع الذكريات.

رد علي:

- اكتب عن رحلتك، عن الأشخاص والأحداث والأماكن التي علقت بذهنك، ووشمت روحك وذاكرتك القلبية، اكتب، أريد أن أرى كيف أبدو بعينيك.

وعدته بأنني سأبدأ فورا كتابة مذكرات رحلة حلمي، لعلي أنعتق بعدها من سجن المآسي والآلام.

شدَّ انتباهنا ريبورتاج عن معاناة الآلاف من اللاجئين السوريين في أثناء انتظارهم فتح الحدود المجرية في وجوههم، علق نورس بأسى:

- أفكر جديا في العدول عن طلب اللجوء إلى إحدى الدول الأوروبية، أرأيت كيف يسيئون إلى أبناء بلدي الشامخ؟ الآن، سأخطط للاستقرار في هذه الأرض الطيبة، في انتظار عودتي إلى سوريا الحبيبة، التي بلغ مني الاشتياق إليها وإلى ياسمينها العتيق مبلغه، متأكد من أن الشام العظيمة ستستقر أوضاعها مهما طال الزمن، وستعود كما كانت من قبل، شام المجد التليد التي ترعرعنا فيها وعشقنا أرضها وهواءها، بعدما نلم شتاتنا من أجل إعادة إعمار يَبابها، سأعود إلى سوريا لأنني لن أبقى أسيرَ حلم الهجرة إلى أوروبا الذي لم يعد إلا حلما منتهي الصلاحية، لذا سأواريه الثرى.. أريد أن أعود لأستنشق رائحة الياسمين، وإذ ذاك.. ستكون لي قصيدة، لكن، «هل في وسعي أن أختار أحلامي لئلا أحلم بما لا يتحقق..» مثلما قال درويش؟

قلت له:

- سيتحقق حلمك قريبا إن شاء الله، متأكد من ذلك.

شـغلت تلايْتمـاس قـارئ الأقـراص المدمجـة، انبعثـت منـه أغنيـة مغربيـة رائعـة، شرع نـورس في الغنـاء معهـا:

- «وهل يا ترى يعود

طيري للعش الدافي

يغرد ع الأغصان

كيف كان أيام زمان..

يرجع لي الهنا يعود

مجدي نرفع اكتافي

ومعاه نغني للأحباب

أعذب الألحان..»

سألت أمي عن هذه الأغنية العذبة، أجابتني مبتسمة:

- إنهـا أغنيـة «وهـل يـا تـرى يعـود» للمطـرب «محمـود الإدريـسي»، نظمهـا الزجـال المغـربي الكبـير «أحمـد الطيـب العلـج».

قال نورس، وفي عينيه ظل دمعة:

- سيعود النورس المهاجر إلى عشه حتما..

صاحت كوكو وهي تنفض جناحيها:

- يعود.. يعود!

***

-١٠-

ذات صباح ممطر من أواخر شهر نوفمبر، دخلت زميلتنا علياء إلى المطعم كإعصار، وهي تشهق بالبكاء، غادرنا المطبخ بسرعة، وتحلقنا حولها لنسألها عما حل بها، شرعت تحكي لنا وهي تسند رأسها على كتف أمنا الحنون تلايْتماس:

- تعبت من استغلال والدي، ومن سوء معاملة زوجته لي، توفيت أمي حين كنت لا أزال صغيرة، بعد طول معاناة مع مرض عضال. وبعد مرور شهر واحد على وفاتها، اقترن أبي بامرأة من قريته، وما أن جلبها إلى البيت، حتى بدأ مسلسل تعنيفها لي..

أنجبا ثلاثة ذكور، وعندما بلغت سن الرابعة عشرة، أجبرني والدي على مغادرة الإعدادية، لأعمل بمقهى شعبي حقير قريب من هنا، كي أساعده على تحمل مصاريف دراسة أخي، أجهض حلمي في إكمال دراستي، متعللا بأنه لا يستطيع تحمل تكاليف دراستنا نحن الإثنين، لأنه عامل بسيط في معمل لتصبير الأسماك..

قضيت عامين من المعاناة في ذلك المقهى المخيف، الشبيه بغابة مليئة بوحوش مفترسة، والذي كنت أتعرض فيه بشكل شبه يومي إلى مضايقات مالكه وتحرشات بعض مرتاديه المرضى، وفي كل مرة كنت أشكوفيها لوالدي هذه الممارسات، كان يصم أذنيه ويعمي عينيه. طيلة مدة عملي بالمقهى، كنت أفعل المستحيل لأحمي نفسي وأحافظ على عفتي.

وذات يوم، رفعت يدي إلى السماء، وطلبت من الله أن ينقذني وينتشلني من ذلك المستنقع الآسن. بعد مرور بضعة أيام، استجاب الرحمن لدعائي، وبعث إلى أمي تلايْتْماس التي ساعدتني وأنقذتني من الضياع..

تحملت كل ما فعله بي والدي طمعا في نيل رضاه، إلا أنني لم أعد قادرة على التحمل أكثر، بعدما أتى ليلة أمس ليخبرني بأنه قد قرر تزويجي لكهل ذميم متزوج بامرأتين، وله منهما أبناء كثر، والطامة الكبرى أنه يعمل في تهريب البضائع الإسبانية من سبتة إلى شمال المملكة.

أفضل إلقاء نفسي في البحر اللُجي على الارتباط بهذا العجوز المشبوه.. أرجوكم ساعدوني!

قضينا وقتا طويلا في تهدئتها، أعطاها نورس قطعة من الشوكولاتة، وجلبت لها الخالة اعويشة كوبا من عصير الليمون، لم تتوقف عن البكاء إلا حين انفجرنا ضاحكين، بعدما قالت كوكو كأنها ترجوها:

- شقراء.. شقراء.. لا تبكي!

قالت لها الخالة اعويشة، وهي تربت على كتفها:

- الأفضل لك ألا تتزوجي أبدا مثلي، إذا كنت سترتبطين بهذا المجرم! انظري إليّ، لم يسبق لي الزواج وأعيش بسلام..

نطق سالم:

- خالتي اعويشة محقة يا أختي، هذا الحقير لا يستحقك!

قال العم عبد الله:

- مرحبا بك يا ابنتي في بيتي معززة مكرمة كواحدة من بناتي.

تدخلت أمنا قائلة:

- سآخذها معي إلى بيتي لتؤنس صغيرتي غيثة، ريثما أجد حلا لهذه المشكلة..

اندهشنا حين قال نورس، موجها كلامه لتلايْتْمَاسْ:

- كنت لأتزوج بها لو كان والدها سيقبل بتزويجها للاجئ مثلي، منذ زمن طويل وأنا أحلم بتكوين أسرة.

احمرت وجنتا علياء، وخفضت رأسها بخفر، ردت عليه تلايْتْماس

وعيناهـا تشـعان فرحـا:

- إنها فكرة رائعة! دع أمر والدها لي، إنه لا يهتم إلا للمال.

بمجرد عودتنا إلى المطبخ، قال لي نورس:

- غريـب كيـف أننـا نـترك أحيانـا شـلالا صافيـا ينسـاب قربنـا، ونتبـع سرابـا واهيـا كخيـط دخـان، لأننـا نصـاب بلعنـة تعمـي أبصارنـا وبصائرنـا.

***

-١١-

قُبيـل نهايـة السـنة، نظمـت الأم تلايْتْمـاس في ڤيلتهـا المطلـة عـلى المحيـط الأطلـسي، عرسـا فخمـا لابنيهـا نـورس وعليـاء، في تلـك الليلـة، بـدت عليـاء بقفطانهـا الأبيـض المرصـع بالأحجـار الكريمـة، وبتاجهـا المتـلألئ كأمـيرة أندلسـية، وبـدا نـورس بجلبابـه المغـربي كفـارس مـن العـصر الأمـوي.

كانـت عليـاء تلـوح لنـا بيديهـا المخضبتـين بالحنـاء، وهـي محمولـة في العْمَّاريـة*، الـتي ذكرتـني بهـوادج ملـكات تمبكتـو القديمـات.

كان المطـرب الشـعبي الـذي أحيـا العـرس يـردد وسـط الزغاريـد الـتي تمـلأ المـكان:

- «لالّة* علياء يا الوردة..

وعليك يطيح* الندى..»

قـام أخـي عبـدول المخبـول مـن مكانـه، وانخـرط في الرقـص كجـرادة مقصوصـة الجنـاح، بعـد لحظـات، رجـع وجلـس قـربي قائـلا بفـرح:

- أرأيت يا أخي؟ لقد تحسنت حالة رجلي بفضل الرمال السحرية!

تذكـرت حديـث بائعـة الأمـل أماديـا عـن الـدور الـذي يلعبـه الاسـتعداد النفـسي للشـفاء في نجـاح الوصفـات السـحرية، وضحكـت. كانـت أسرة نـورس الصغـيرة مبتهجـة، وكانـت تلايْتْمـاس ترقـص بسـعادة مـع طفلتهـا غيثـة الـتي تحسـن وضعهـا الصحـي والنفـسي كثـيرا، في

---

*العْمّارية: هو دج تُحْمَل فيه العروس.

**لالّة: كلمة من أصل أمازيغي تفيد الاحترام، معناها: سيدتي.

***يطيح: يسقط.

حين كان والد علياء يجلس مع زوجته وأبنائه منها وهم يتابعون العرس في جمود.

قدموا لنا الحلويات المغربية المحشوة باللوز، مرفقة بكؤوس من الشاي الأخضر، انقض عبدول على الحلويات والتهمها كطفل تسلل في غفلة من الساحرة آكلة الأطفال إلى بيتها المصنوع من الحلوى، في قصة «هانسل وغريتل»..

وأخيرا، تيقنت من أن أخي الأحمق عبدول قد عاد إلى طبيعته..

***

-١٢-

ليلـة زفـاف عليـاء ونـورس، راودني حلـم غريـب، رأيـت أنـني أسـير في تُمبكتـو عـلى غـير هـدى، مـررت قـرب بـئر قديمـة، مهجـورة، فجـأة، صعـد منهـا سرب مـن الحمـام الرمـادي.

تابعـت سـيري حـتى وصلـت إلى ضريـح سـيدي يحـيى، تعرضـت لصدمة قويـة حـين وجدتـه مدمـرا ومحترقـا مثلمـا تركتـه الجماعـات المسـلحة المُخَرّبـة، تجسـد لي طيـف أماديـا، كانـت ترتـدي عبـاءة بيضـاء، وكانـت ممسكة بـشيء مـا بـين يديهـا، فتَحَتهمـا، نفخـت في كفيهـا، طـارت منهمـا فراشـة ذات ألـوان زاهيـة، حطـت عـلى قبـة سـيدي يحـيى، ابتسـمت لي أماديـا، وقالـت:

- آن الأوان لتنهـي رحلتـك، وتجهـض حلمـك، تمامـا كمـا أجهضـت أمـواج البحـر المتلاطمـة حلمـي، نقـب عـن حلمـك القديـم – المنـسي، وأعـد إحيـاءه لتُحلـق بحُرّيـة في سـماء الأحـلام، مثـل هـذه الفراشـة.

أخـيرا، صحـوت مـن حلمـي بالهجـرة إلى الإلـدورادو، ذلـك الحلـم الآيـل للذبـول، والـذي اكتشـفت أنـه لـم يكـن إلا أضغـاث أحـلام.

لا وجـود لجزيـرة الأحـلام، إنهـا مجـرد جزيـرة وهميـة شـيدنا عـلى سرابهـا قصورنـا الهشـة، مسـتعينين في ذلـك بمخيلاتنـا الخصبـة، وذاك البحـر الـذي كنـا نحلـم بعبـوره، ليـس في الحقيقـة إلا مقـبرة تضـم مئـات الأحـلام الغريقـة.

برؤيـتي لأماديـا، بـدأ العـد التنـازلي لنهايـة حلمـي، الـذي تعبـت مـن حملـه بـين يـدي كجمـرة متّقـدة تغـوص في كفـي كل يـوم، أكـثر فأكـثر.

سـأقتل حلمـي قبـل أن يقتلـني بعدمـا يتحـول مركـبي إلى مركـب مـن لهـب، لأنـه في وقـت مـا، يلـزم الإنسـان التحـلي بشـجاعة كافيـة مـن أجـل التخـلي عـن حلمـه / وهمـه، وتعويضـه بحلـم بديـل، تلـك الشـجاعة الـتي

كانت تنقصني لمدة طويلة.

ما من مكان محدد للحلم، الحياة تمنحنا دوما فرصة اختيار حلم آخر وتنفيذه في أي مكان..

تذكرت حلمي المنسي، المدفون منذ سنين في صندوق أحلامي، والذي كان هو افتتاح مطعم صغير بمدينتي الغالية تمبكتو، وابتسمت، وللمرة الأولى، أحس بأنني انعتقت من أسْر حلم استحال كابوسا.

***

-١٣-

صرحت برغبتي في العودة إلى تمبكتو لأمي الروحية تلايْتماس، ورويت لها حلمي القديم بإنشاء مطعم هناك، راقتها فكرتي، وعدتني بأنها ستمنحني مبلغا من المال لأضيفه إلى مدخرات جورج وثمن منحوتاته، لأتمكن من افتتاح المطعم الذي أرى فيه حلمي، ثم قالت:

- سأفتقدك كثيرا يا بُني.. لكنني مع ذلك سأساعدك على تحقيق حلمك المؤجل، اعتبرني شريكتك.

بدأنا إجراءات استخراج جوازي سفرنا أنا وعبدول بمساعدة العظيمة تلايتماس، بعدما أقنعته بالعدول عن حلمنا القاتل، والعودة إلى مالي، قائلا إننا سنعثر هناك على نجمته الضائعة التي سبقتنا إلى تمبكتو.

فور حصولنا على الجوازين، رجوت أمي أن ترافقنا في الليلة السابقة لرحلة عودتنا إلى زاوية الشيخ المتصوف «مولاي عبد السلام بن مَشيشْ العلمي»، المنحدر من شجرة المولى إدريس الشريفة.

قصدنا هذه الزاوية المباركة، دخلنا، فوجدنا شيوخ المتصوفة ينشدون أبياتا من قصيدة «الفيّاشيَّة»، التي نظمها الدرويش الفقير إلى الله «سيدي بهلول الشرقي»، رددت معهم:

- «بتقدير مولاك كن راضيا.. ولا تنزعج أبدا من حرج..

جرت عادة الله في خلقه.. إذا ضاق أمر أتى بالفرج..

وكم ليلة بتُّ في كُربة.. يكاد الرضيع لها أن يشيب..

فما أصبح الصبح حتى أتى.. من الله نصر وفتح قريب..»

ختمنا بالصلاة على أشرف المرسلين:

- «اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما

سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم».

في ذلك الصباح المشمس من بداية شهر فبراير، ودعت ميكائيل بعدما شكرته على كل ما فعله من أجل جورج، ومن أجلنا، تمنيت له حظا موفقا، وتركت «بوني» في عهدته.

ملأنا قارورة زجاجية برمل طنجة الذهبي، ثم حملنا حقائبنا، امتطينا سيارة تلايتماس وتوجهنا نحو مطار مدينة الدار البيضاء، لنستقل طائرتنا التي ستحلق بنا صوب مطار العاصمة باماكو.

وصلنا، عانقتني أمي الروحية وقالت:

- أعدك بأنني سأزورك عما قريب أنا وغيثة في جوهرة الصحراء، لندشن معا مطعمنا المغربي – المالي «حلم بوكتو».

حضنتُ نورس الذي أدين له بالكثير، كونه ساهم في الارتقاء بفكري وتطوير لغتي العربية، زفَّ لي خبر حمل زوجته علياء بطفلهما الأول الذي اتفقا على أن يطلقا عليه اسم «مجد» إذا كان ذكرا، أو «شام» إذا كانت أنثى، هنأته متمنيا له سعادة أبدية مع أسرته الصغيرة، قبل أن أسلمه نسخة من مذكرات رحلتي نحو الحلم بنهاية مفتوحة.

***

-١٤-

سأعود إلى مهد الأساطير تمبكتو لأرمم حلمي، مثلما ستعيد لجنة التراث العالمي التابعة لليونيسكو ترميم ضريح سيدي يحيى.

سأعود، وأنا أحمل في يدي مزهرية حلمي، ومركب الحلم الإفريقي الذي لم تكن أشرعته الصغيرة كافية لإيصالنا سالمين إلى ضفة الوهم.

سأعود، لأنثر بذور حلمي القديم/ الجديد بتربة مسقط رأسي، وأكتب نهاية سعيدة لحكايتي..

«للحلم بقية»...

فـي **كيـان للنشـر والتوزيـع**، هدفنـا نشـر كل إنتـاج إبداعـي، جودتـه عاليـة، وأفـكاره أصيلـة، فـي مختلـف مجـالات الأدب والسياسـة والصحافـة والفـن، باللغـة العربيـة والإنجليزيـة. نهتـم بالمواهـب، ونرعاهـا، ونتيـح لهـا فرصـة الوصـول للقـارئ العربـي، مـع مراعـاة أفضـل معاييـر الجـودة والاحترافيـة فـي النشـر.

رسالتنا فـي كيـان، تشـجيع حـب القـراءة والكتابـة فـي مصـر وعالمنـا العربـي، وتطويـر مهـارات الإبـداع، وتعزيـز ثقافـة التميـز والابتـكار. كُتَّابنـا موهوبـون، متمرسـون، مصريـون، ومـن جميـع أنحـاء الوطـن العربـي، وإصداراتنـا متنوعـة، متميـزة، مختلفـة. دائمًـا نرحـب بالكتـاب الشـباب، والمواهـب الجديـدة، ونعطـي فرصـة متسـاوية للجميـع؛ لأن مرادنـا هـو الارتقـاء بفنـون الأدب العربـي ككل، والوصـول بالإنتاجـات الابداعيـة العربيـة إلـى العالميـة .

لـو تحـب **تراسـلنا**، لـو عنـدك استفسـار، لـو حابـب ترسـل لنـا إنتاجـك الأدبـي، سـواء كـان روايـة، أو شـعر، أو مقـال، باللغـة العربيـة أو الإنجليزيـة، مـا تترددش.

ابعـت لنـا علـى:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing